

أليكس موكيالي

علم النفس الجديد

تعريب

حسين حيدر

منشورات عويدات
بيروت ـ لبنان

علم النفس الجديد

ويشمل، كمرحلة ثانية، الكتب التالية :

1 ــ إشارات، رموز وأساطير/ لوك بنوا
2 ــ اضطرابات اللغة/ ديديه پورو
3 ــ فلسفة الفن/ جان لاكوست
4 ــ تاريخ الشعب العبري/ أندريه لومير
5 ــ علم النفس المدرسي/ هوغيت كاغلار
6 ــ النظريات التربوية الحديثة/ جان بول رزڤبر
7 ــ المراهقة والاكتئاب/ هنري شابرول
8 ــ نمو الطفل/ ليليان موري
9 ــ الإجهاد ــ أسبابه وعلاجه/ جان بنجمان ستورا
10 ــ بناء علم الاجتماع/ جان ميشال برتيلو
11 ــ مهنة المؤرخ/ غي تويلييه وجان تولار
12 ــ فلسفة القيم/ جان بول رزڤبر
13 ــ التربية المقارنة/ هانك فان دايل
14 ــ علم النفس الجديد/ ألكس موكيالي
15 ــ تاريخ جهنم/ جورج مينوا
16 ــ الفكر الأخلاقي المعاصر/ جاكلين روس

FAIT EN DOUBLE EXEMPLAIRE, A PARIS, le 2 juillet 1996

Les Editeurs,

P.U.F.,
PRESSES UNIVERSITAIRES
DE FRANCE

H. [signature]

Le Président du Directoire

Le Cessionnaire,

EDITIONS OWEIDAT
☏ 831?70 - Fax (?) 421003
B.P. 628 Beyrouth - Liban

الطبعة الأولى 1997

تقديم المعرّب

يشهد علم النفس مرحلة جديدة في تطوره، وتغيراً جذرياً في أنماط تفسيره. ويعتبر واضع هذا المؤلف الصغير أن تحولاً قد حصل في المعارف العلمية للعلوم الإنسانية، وأن الطريق قد فتحت أمام مفاهيم جديدة في علم النفس.

وترتبط هذه المفاهيم الجديدة بجملة من العناصر النظرية المستندة إلى نتائج بحث باهرة وتجارب وقيم تشارك فيها مجموعة من الباحثين. ويعتقد المؤلف أنه ليس من السهل وضع تحديد دقيق لما يغطيه تعبير علم النفس اليوم. ويميز بعض الباحثين بين علم النفس «العملي» وعلم النفس «العلمي»، فيبحث الأول في المشكلات النفسية الواقعية، في حين يبحث الثاني في المشكلات الخاضعة للدراسة ويسعى إلى مفاهيم بعيدة عن الحياة اليومية.

ورغم التنوع الكبير في تعاريف فروع علم النفس المختلفة، يقول المؤلف إنه يقدم تعريفاً لعلم النفس، موجهاً إلى الجمهور الواسع، ويؤكد فيه أن موضوع الدراسة لعلم النفس البشري هو الإنسان في أشكال تصرفه وسلوكه من جهة، وفي حالات الوعي والإدراك لديه من جهة أخرى.

ويميز المؤلف في هذا الكتاب بين مجموعتين من الصيغ المرجعية لعلم النفس.

فالمجموعة الأولى تكونت حول التحليل النفسي الذي وضعه فرويد وارتكز فيه على المعالم التصورية المكونة للصيغة المرجعية المستندة إلى الاستعادة الطوعية للماضي والتعبير الشفهي لمراقبة الرغبات.

أما المجموعة الثانية فهي التي ولّدت «علم النفس الجديد» المعاصر، وهي ترتكز على المعالم التصورية المستندة إلى نظام من التفاعلات والاستقراء المتبادل لأشكال السلوك، وثبات العوامل الوظيفية لأنظمة التفاعل.

هكذا فقد تشكل نظامان علميان غير قابلين للتوفيق بينهما، وهما الآن في حالة تنافس للهيمنة العلمية في ميدان علم النفس.

حسين حيدر

مقدمة

يمر علم النفس الجديد في مرحلة ثورة عميقة. وتشهد نماذج مراجعه وأنماط تفسيره تغيراً جذرياً. تلك هي الظاهرة التي أحاول تحديدها في هذا المؤلف الصغير. فمنذ عشرين سنة، أصبحنا أفضل تسلحاً لكي نفكر بهذا النمط من تحول المعارف العلمية. وتتساءل معظم العلوم الإنسانية، من الآن فصاعداً، حول مراجعها الأساسية، وتنظيم الأبحاث بالتالي حول مناقشة هذه النماذج والتجارب بدلاً من الضياع في المشاحنات والمحرمات المدرسية (يعني المرتكزة على أوليات فلسفية). وسأتبع في هذا الكتاب مقاربة تستند إلى المنشأ الأصلي والتاريخي، لإظهار ما تعرضت له الصيغ العامة لعلم النفس، من تغير كبير يفتح الطريق لـ «علم نفس جديد» هو في طريق البناء الآن.

والقياس جملة من العناصر النظرية والتصورية المتماسكة للمنشأ العلمي «تستخدم إطاراً مرجعياً لمجموعة الباحثين في هذا الفرع العلمي وذاك»[1]. وإلى هذه العناصر ينبغي إضافة نتائج بحث باهرة، وتجارب مؤسسة، ومعتقدات وقيم تشارك فيها مجموعة من الباحثين.

وعلم النفس، كأي علم آخر، يستهدف جعل الظاهرات الواقعة في حقل التحليل «واضحة». ويتكوّن الوضوح العلمي من المشاركة في المعنى. وينشأ المعنى دائماً عن العلاقة بشيء معين. فالمعنى في الواقع هو دائماً معنى لشيء في شيء آخر أو في العلاقة معه ومعنى الكلمة هو (في الحد الأدنى) معنى في سياق الجملة، ومعنى الإشارة المدركة هو معنى في العلاقة مع شبكة الإدراك، المكونة في ثقافتنا وفي شخصيتنا بكاملها، ويصبح معنى المعلومة معنى بعلاقتها مع معلومات أخرى

(1) Définition de T. S. Kuhn (1962), La structure des révolutions scientifiques, Flammarion, 1972.

(والمعلومة لا تصبح إعلاماً إلا بـ «التحقيق في الحادث»)؛ ومعنى سلوك الآخرين هو معنى بالمقارنة مع توقعاتنا ومقاصدنا، ومعنى فعل شخص هو معنى بالمقارنة مع مشاريعنا، ومعنى «حدث» هو معنى بالنسبة إلى اهتماماتنا وقيمنا. . فالمعنى (وبالتالي الوضوح العلمي) يتولد من المقابلة بين ما «ندعوه» «الواقع والحقيقة» مع عدد معين من مراجع الإسناد المعتبرة مخطط فك الرموز. بيد أن أحد المراجع الرئيسية المكوِّنة لإدراك «الواقع وتحويله إلى «تصور علمي» هي الصيغة المستخدمة من قبل الباحث. ويدخل هذا القياس بقوة، في تكوين الوضوح العلمي للواقع. ويفعل القياس حينذاك كآلية إدراك ومعرفة تحول «الواقع» إلى تصور[1]. وهي آلية انتقاء وإعادة تركيب مكرسة لجعل الواقع واضحاً (وإعطائه معنى). هذا القياس هو بالتالي العملية المحوِّلة التي يلجأ إليها الباحث في عمله لبناء الموضوع العلمي لبحثه. وحين يكون الواقع أقل ما يمكن من التعقيد، تكون الصيغة مختزلة بالضرورة. وفضلاً عن ذلك، يحمل التصور المصاغ آثار توجهات القياس، وإذا كان هذا «المحوِّل» آلياً، تكون تصوراتنا آلية، وإذا كان نظامياً، تكون تصوراتنا نظامية. . . من هنا الأهمية المعطاة لتفسير القياسات في التحليل المعاصر من تطور الأنظمة العلمية.

والآن، بعد أن حدَّدتُ موقع الرؤية العامة لهذا المؤلف، يجدر التساؤل حول ماهية علم النفس الذي أريد معالجته، لأنه من المعروف جيداً أنه توجد، في أيامنا، علوم نفس بقدر ما يوجد من متخصصين في علم النفس، بحيث يبدو من الصعب إيجاد تعريف متفق عليه لعلم النفس.

ففي مقالة حول «علوم النفس» الموسوعة الشاملة للفلسفة الصادرة في عام 1989، يقول ج ف . لوني: «إنه ليس من السهل وضع تحديد دقيق لما يغطيه اليوم تعبير «علم النفس»، أو بالأحرى إبداء الرأي حول التطورات في هذا المجال. . . وفي كل الأحوال، إن علم النفس يبدو متنوعاً، مقسماً ومهتزاً تحت تأثير اضطرابات التعارض». وفي مقالة أخرى، دون تحديد دقيق لعلم النفس أيضاً، يميز لوني بين علم النفس «العملي» وعلم النفس «العلمي». فالأول «يقدم إجابات على مشكلات نفسية واقعية. . . كما يقدم معارف ملموسة شديدة الارتباط بالحالات الخاصة للأفراد

---

(1) J-L Le Moigne, La théorie du système général, PUF, 1984.

وأوضاعهم...»، في حين يُحدد علم النفس العلمي المشكلات الخاضعة للدراسة ويسعى إلى معارف أكثر تجريداً، وإلى مفاهيم بعيدة عن الحياة اليومية. ومع ذلك فإننا نجد تعاريف لمختلف فروع علم النفس. وعلى هذا الأساس حدد م. روكلين علم النفس الاختباري كعلم هدفه «وصف تصرفات الأجسام بشكل قابل للتحقيق». ويحدد و. دواز علم النفس الاجتماعي كـ«دراسة للصلة بين المسارات الموجهة للديناميات الفردية والمسارات الموجهة للديناميات الجماعية». ويحدد د. لاغاش علم النفس المرضي كـ «دراسة صادقة، في أكبر قدر ممكن، لتصرفات وأساليب فعل ورد فعل كائن بشري محدد على وضع معين لتحديد معناه، وبنيته وعناصر تكونه»... ويتّضح جيداً كيف تحظى هذه الفروع برؤى مختلفة جداً، ومرتبطة بشكل طبيعي، بمناهج مختلفة بصورة جذرية.

وأمام صعوبة إيجاد تعريف مشترك ونهائي لعلم النفس أُقدم تعريفاً هو بالأحرى «للجمهور الواسع» بالاستناد إلى قدامى كبار لم تكن لديهم خشية من تأكيد مفهومهم: «موضوع الدراسة لعلم النفس البشري هو الإنسان في المنظور المزدوج لأشكال تصرفه وسلوكه من جهة، ولحالات وعيه من جهة أخرى، ويبحث هنا العلم في صياغة قوانين هذه الظاهرات، وفي تفسير عناصر تكوّنه، لكي يمكن تغييرها عند الاقتضاء». تلك هي رؤية لتحديد علم النفس «السريري» تقريباً، وهي تتوافق بشكل أفضل مع ما لدينا من فكرة عن علم النفس، لأنها تنطبق على تصرفات ملموسة يمكن أن يلحظها كل واحد في الحياة اليومية، وتضاف إليها، بصورة اعتيادية تفسيرات مخصصة لكشف معنى هذه التصرفات. إننا سنهتم بالتالي بعلم نفس «الحياة اليومية»، دون أن يتحول إلى علم نفس حصري للحس المشترك المستخدم لمفاهيم الأدب الدائمة. فعلم النفس الذي سنتحدث عنه (القديم والجديد) يعطينا مفاهيم شديدة الخصوصية.

سأبيِّن في هذا الكتاب أن هناك مجموعتين كبيرتين من الصيغ المرجعية لعلم النفس. مجموعة أولى وضعت في ثمانينات القرن الماضي مع مرجعيات علمية عصبية بشكل أساسي، وناشئة عن الاختبار حول التنويم المغناطيسي، والثانية وضعت في ثلاثينات القرن الحالي، مع مراجع دراسية للعادات والأخلاق بشكل

أساسي، وناشئة عن الملاحظة والاختبار حول حالات الإدراك.

والمجموعة الأولى هي التي كوّنها فرويد تحت اسم التحليل النفسي. وترتكز على المعالم التصورية (أو عناصر مكونة للصيغة المرجعية) التالية: اللاوعي، الدوافع الداخلية (أو الرغبات)، والبنية النفسية في هذا، والأنا والأنا المثالي، وعقدة أوديپ، وعبء الماضي العاطفي، وآليات الدفاع والتحويل؛ مع تجربة قياسية: معالجة حالات العُصاب بالتنويم المغناطيسي، وكنموذج علاجي بالمعالجة التحليلية النفسية عن طريق الاستعادة الطوعية للماضي والتعبير الشفهي وتعزيز الإلحاح المعياري لمراقبة الرغبات.

أما المجموعة الثانية فهي التي ولّدت «علم النفس الجديد» المعاصر. وهي ترتكز على المعالم التصورية التالية: التفاعل، ونظام التفاعلات، والاستقراء المتبادل لأشكال السلوك، مستويات الاتصال، والأشكال المانعة للاتصال، وقواعد نظام المبادلات، وثبات العوامل الوظيفية لأنظمة التفاعل، وبناء واقع تخيلي، مع تجربة قياسية: وضع الإكراه المزدوج، كنموذج مرضي في النظام المحصور للتبادلات، وكتقنية علاجية، في إعطاء الأمر المفارق.

هذان النظامان العلميان للمرجعية غير قابلين للتوفيق بينهما، وهما حالياً في حالة تنافس للهيمنة العلمية في الميدان. وإيجابية نظام التحليل النفساني في رسوخه الاجتماعي القوي، وسلبيته ومبالغاته التفسيرية، وتذويبه في «مدارس» عديدة، وحالات فشله في عمليات المعالجة. وإيجابية النظام الثاني جيدة في الأصل المنطقي لنشأته الحديثة ونجاحاته العملية. وبالطبع فإن سلبيته في الغياب الكلي للرسوخ الاجتماعي وجهود إبطاله المبذولة من قبل مؤيدي النظام الأول.

القسم الأول

إنسانُ رغباتٍ متميز بماضيه

يقول فرويد إن للتحليل النفساني معنيين: إنه يعني أولاً منهجاً خاصاً لمعالجة الآلام العُصابية؛ ويعني ثانياً علم المسارات النفسانية الباطنية[1]. ومن هذا المعنى الثاني ننظر إلى التحليل النفساني كعلم نفسي يزعم تفسير جميع المسارات النفسية الداخلية لدى الأفراد، وبالتالي التصرفات الناتجة عنها.

إن اعتبار التحليل النفساني مثالاً نموذجياً لـ «علم النفس» هو بالتالي سير في اتجاه فرويد الذي أراد دائماً أن يجعل من التحليل النفساني «فرعاً، بل كل شيء في علم النفس»، كما يقول ي .بريس[2]. ويعني ذلك الاعتبار أيضاً التسليم الواضح بنجاحه الشامل، وانتشاره في جميع مجالات الفكر، وتطبيقاته في تحليل جميع أشكال السلوك البشري العادية أو المرضية، الفردية أو الجماعية (من الجنوح أو الاعتداء على أعمال الفن مروراً بالطُرَف والأفعال غير الناجحة)، وما لا جدال فيه أن علم النفس هذا المدعو التحليل النفساني و «التحاليل» التي قدمها لجميع أشكال السلوك البشري، خلال الخمسين سنة الأخيرة، هو ما ميَّز الحس المشترك. ولم يكن لفروع علم النفس الأخرى التأثير العام الكبير الذي لقيه التحليل النفساني.

---

(1) S. Freud, Ueber Psychoanalyse, Gesammelte Werke, XIV, p, 300.

(2) Y. Brès, Encyclopédie philosophique universelle. «Genèse et signification de la psychologie», P. 882.

فضلاً عن ذلك، فإننا سنرى كيف ساهمت فروع علم النفس الأخرى (علم النفس الاختباري، وعلم النفس الإنمائي، وعلم النفس الاجتماعي)، في تأسيس علم النفس الجديد الذي هو جديدها الخاص تقريباً.

هكذا سأقدم التحليل النفساني ملحاً على مفاهيمه الأساسية، ونماذجه المرجعية وتجاربه التأسيسية، ومشدداً قدر الإمكان على نتائج المنشأ المنطقي لخياراته.

الفصل الأول

المعالم التصورية لعلم النفس التحليلي

I ـ الدوافع

يرى فرويد في الحياة النفسية «جهازاً» شبيهاً بخزان «الدوافع» الفطرية أو المكبوتة التي تستهدف الإفلات والانتقال إلى الفعل، لتحقيق غايتها الأساسية. ويكون الدافع بالتالي هو المفهوم الأساسي الأول للتحليل النفساني.

الدافع بالنسبة إلى المحللين النفسانيين هو بصورة دقيقة: «مسار دينامي يكمن في طاقة (شحنة قوة، وعامل تحريك) تدفع الجسم نحو هدف معين»[1]. وحسب فرويد، فإن للدافع مصدره في إثارة جسدية (حالة توتر)؛ وهدفه إزالة التوتر الذي يسيطر على مصدر الدفع، وفي الموضوع أو بفضله يمكن للدافع أن يصل إلى هدفه». وقد عرض فرويد، في مقولته الثانية، دافعين كبيرين: دافع الحياة (ايروس) ودافع الموت (تاناتوس). وفضلاً عن ذلك، فإن آليات فطرية أخرى تعمل بالارتباط مع هذين الدافعين: التخيلات الأولية وأليات دفاع الأنا ضد القلق الداخلي الذي سنتحدث عنه لاحقاً. ويكون الموضوع الملبي للدافع هو الوسيلة التي يصل بها إلى هدفه. ويكون «مصدر الدافع» في المقدمة، وهو المطلق المحرك لـ «الإثارة الجسدية». ويعتبر فرويد أن مصادر إثارة الدافع متعددة (ليس فقط مناطق الإثارة الجنسية للدافع الجنسي مثلاً). وترتبط بتاريخ الشخص (التجارب الشخصية، الصدمات المؤدية إلى تصورات ثابتة حول «تمائم»..). وفي ما يخص مواضيع تلبية

---

(1) Laplanche et Pontalis, Vocabulaire de la psychanalyse, PUF, 1976, p. 360.

الدوافع، هناك ميل إلى تثبيت نهائي للمواضيع الأولى التي عرضت لإفراغ الدوافع من جهة، كما أن هناك مواضيع استبدال ناجمة عن تحول الدافع من جهة أخرى. ويكون هذا التحول ظاهرة لاواعية توظف موضوعاً مختلفاً عن الموضوع الأصلي، لكنه مرتبط به بعلاقة تجانس، بالشحنة العاطفية المثيرة. فيتحول الدافع حينذاك إلى حاجة، مثل الدافع الجنسي الذي يوظف في بادىء الأمر حول ثدي الأم، ويتحول لاحقاً إلى حاجة إلى السيجارة ومص قلم رصاص أو مضغ علكة. ما يدفع إلى القول حينذاك إن الدافع لم يعد يستهدف الموضوع الأولي بل ما يمثله بشكل غير واع.

إن النوذج المرجعي لنظام الدوافع باعتباره خزاناً للطاقة يجد مصدره البعيد في نموذج القوة النفسية (أو نظرية السائل) لواضعها مسمير Mesmer الذي يؤكد في أطروحته الطبية عام 1766، أن الأجسام البشرية تخضع للقوة الدينامية ذاتها كما للأجسام السماوية المؤثرة على الأرض، وأن هناك «قوة شاملة» خاصة بالإنسان ـ كنوع من المغناطيسية ـ تعود للقوى الداخلية للجسد التي تتحرك «نحو قطب الحياة أو قطب مسارات مرضية»، تظهر في حالات الاضطراب. وتطورت نظريته وممارساته فيما بعد، وصار يعتبر أن كل مرض ينجم عن إعاقة حركة هذا السائل الحيوي.

II ـ الكبت

اكتشف فرويد الكبت منذ ملاحظاته السريرية الأولى. ويكمن في الاحتفاظ أو الدفع إلى اللاوعي للتصورات المرتبطة بالدوافع التي يمكن أن تحدث شجوناً خطيرة للأنا إذا وقعت في إطار الوعي أو التصور السابق له، فالذكريات الدفينة أو المكبوتة تميل إلى العودة إلى الوعي والإدراك، لكن قوة مضادة مقاومة يمكن أن تحول دون ذلك، إذا كانت هذه الذكريات متعبة. وتدفع آلية الكبت إلى اللاوعي الدوافع التي تجازف تلبيتها بمعاكسة المحظورات الأهلية والاجتماعية. وتكون الحياة النفسية بالتالي حقلاً مغلقاً تتواجه فيه قوى متعارضة. وبشكل مترابط يتحدد المرض الذهني كعجز للشخص عن تحمل هذا التعارض التنازعي للدوافع الداخلية.

يحدث «الكبت» على عدة مراحل. ففي المرحلة الأولى، يجر «التصور» السابق للوعي أو غير الواعي ـ الذي هو مرتكز الهموم ـ إلى استثمار الدافع. ولمنع

التصور المكبوت من الظهور مجدداً في المدى السابق للوعي - الوعي، يحصل استثمار مضاد يعزز فعل الرقابة، ويحمي هذا المدى ضد دفع التصور المكبوت. وفي الأخير، ورغم هذا الاستثمار المضاد، يمكن للتصور المكبوت الظهور على صعيد الوعي بـ «رفضه». وهذا ما يسمي فرويد «عودة المكبوت» الذي يترجم بأشكال زلات اللسان ونسيان الأسماء، والأفعال غير الناجحة، والطُرف. ويقتضي الكبت انفاقاً مستمراً للطاقة. وإذا نفدت هذه الطاقة، فإن كبتاً جديداً يصبح ضرورياً. فضلاً عن ذلك، فإن الجهد الدائم للمكبوت للخروج من الحالة التي يكون فيها، يجد تعبيره الأمثل في تكوين الحلم. كما يحصل أن يكون في مقدور «رفض المكبوت» أن يصل إلى المدى السابق للوعي - الوعي، بشكل أكثر دواماً بالمساهمة في تكوين العرض.

ومنشأ النموذج التحليلي للكبت، نجده في علم النفس لدى هيربارت (1824) الذي كانت عتبة الوعي بالنسبة إليه هي أرض معركة متواصلة بين تصورات متغيرة. وبينما تقوم التصورات الأقوى فيها بدفع التصورات الأضعف إلى ما دون هذه العتبة، تحاول التصورات المكبوتة الظهور من جديد. وتشكل هذه الأخيرة، تحت عتبة الوعي، نوعاً من «جوقة مرافقة للمسرحية التي تجري على الصعيد الواعي». وكان هيربارت يضع، تحت هذه العتبة، جملة مدارك غير واعية. وكان يمكن تنشيط هذه المدركات بإدراك جديد يكون مؤهلاً للاندماج مع المجموعة[1].

إن هذا النموذج الفرويدي للحياة النفسية، الخاضعة للدوافع بشكل حصري، يسلب الإنسان أية إمكانية للتدخل في أفعاله ومقاصده. فالإنسان يُحرَّك من الداخل بالدوافع والنزاعات المختلفة بين مناهج الهذا، والأنا، والأنا الأعلى، التي لا يراقبها. بهذا المعنى فقد أسفت انتقادات عديدة للتحليل النفسي لـ «آلية» هذا المفهوم للطبيعة البشرية. وتؤكد هذا المفهوم كتابات المحلل النفساني للخمسينات پ .داكو، الذي ساهم كثيراً في تعميم التحليل النفسي بكتبه التي طبع منها ملايين النسخ. وفي كتابه «الانتصارات الخارقة لعلم النفس المعاصر» المكرس للتحليل النفسي يقول: «هذا رجل عدواني. سيقول مثلاً: أنا لا أرضخ، أنا! لماذا يردد هذا

(1) H. F. Ellenberger, A la découverte de l'inconscient, Simep Ed., 1974.

الوعيد على الدوام؟ لأنه يعتقد أنه مهدد. ولماذا يعتقد ذلك؟ لأنه خائف. فعليه أن يقول بالتالي: «في داخلي شيء يدفعني إلى أن أكون عدوانياً، هذا الشيء هو خوفي»... بدل أن يقول «أنا خجول»، عليه أن يقول: «في داخلي شيء يدفعني إلى أن أكون خجولاً»... وبدل أن يقول: «أنا أقرر»، عليه أن يقول: «في داخلي شيء يُلزمني بأخذ القرار»... فالأمر هكذا طيلة الحياة. إن جوارير عديدة تغلق وتفتح في شخص واحد، وفي كل تسع مرات من عشر لا يد له فيها. لكنه مع ذلك، يقول «أنا»...»[1]. ويؤكد د. لاغاش هذا الاستنتاج المتعلق بنموذج التحليل النفساني، متفحصاً بالتفصيل مناهج الهذا، والأنا والأنا الأعلى، ويشدد مثلاً على أن «شكل فعل الأنا الأعلى على الأنا يخفى على الذات. فتشكل الأنا الأعلى معدِّلاً لمشاعر الاعتبار للذات... ومصدراً محركاً لمحور القيم الأخلاقية والانفعالات الشاهدة على رضى الذات أو استيائها، في هذا المعنى مثلاً، تكابد الأنا دائماً الشعور بالذنب، سواء كان عقلانياً أم غير عقلاني، محتملاً أم مرفوضاً...»[2].

III - اللاوعي والجهاز النفساني

غالباً ما يُظن خطأً أن فرويد هو مكتشف اللاوعي، وأن تصوره عن الجهاز النفساني كان جديداً كلياً. والصحيح أن فرويد ركّب جملة مفاهيم كانت معروفة جداً في أيامه. مما يقتضي البحث عن منشأ المفهوم «المتدرج» للحياة النفسية في الأفكار العلمية التي كانت متداولة. وفوجىء المنوِّمون المغناطيسيون، في ذلك الوقت، بالحياة الجديدة التي كانت تظهر أثناء «التنويم المغناطيسي». وكانت هذه التجارب في أصل المفهوم الثنائي للنفس البشرية. ويعرض ديسوار هذه النظرية، في مؤلفه الشهير: الأنا المزدوج (1890)، حيث وسع فيه فكرة وجود مستويين في الفكر الإنساني: مستوى «الوعي الأعلى» ومستوى «الوعي الأدنى»، ولكل منهما ميزاته الخاصة، فالوعي الأدنى ذو قوة إدراك وإبداع خفية تظهر في الأحلام، وخاصة في حالة الروبصة التلقائية وفي التنويم الصناعي. وفضلاً عن ذلك فقد كان عالم النفس

(1) P, Daco, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, Ed. Gérard, Marabout, 1960 p. 465.

(2) D. Lagache, Le modèle psychanalytique de la personnalité, in Les modèles de la personnalité en psychologie, Symposium de l'Association de psychologie scientifique de langue française, PUF, 1965, p. 91- 117, p. 99.

الذي ذاع صيته في ثمانينات القرن الماضي، كان يقول إن عتبة دينامية تفصل بين اللاوعي والوعي، وناتجة عن التعارض بين التصورات المتصارعة فيما بينها للانتقال إلى حالة الوعي. ونادى كذلك بمفهوم سلاسل التداعيات، كما بفكرة الميل إلى التوازن التي تحكم جملة المسارات النفسية. وكان فلاسفة مشهورون مثل شوپنهاور، وفون هاريمان قد وسعوا أفكارهم حول مسألة وجود حياة ذهنية غير واعية، وأبرز شوپنهاور الآلية النفسية لـ «التسامي» الظاهر في عدد من الإبداعات. وكما أشار إلينبرغر «لا شيء أبعد عن الحقيقة من الرأي المألوف الذي يريد من فرويد أن يكون الأول في إدخال نظريات جنسية جديدة، في زمن كان فيه كل ما يخص الجنس محرماً»، لأن نظريات فليس وڤينيغر Fliess et Weiniger حول الثنائية الجنسية الأساسية للجنس البشري كانت منتشرة للغاية[1].

ويقدم فرويد تصوراً عن الحياة النفسانية بشكل آلية تستهدف السيطرة على الإثارة والدوافع. وفي تصور آخر للجهاز النفساني جرت بلورته في عام 1920، تأخذ التعارضات الداخلية للشخص شكل صراع بين ثلاث مقولات، الهذا والأنا والأنا الأعلى. فتمثل مقولة الهذا القطب الدافع للشخصية (تشمل كذلك الدوافع النظرية كما الرغبات المكبوتة خلال حياة الفرد)، أما الأنا فإنها تظهر شيئاً فشيئاً من الهذا اعتباراً من لحظة ظهور ذاتية الطفل (بين 6 و 18 شهراً في «مرحلة المرآة»)؛ وتتكون فوق الأنا باستبطان جملة محظورات الأهل والمجتمع. غير أن كل ما هو هذا ليس هو بالضرورة لا وعياً، لأنه يمكن أن تكون فيه دوافع مقبولة جداً من قبل الأنا، كما أن كل ما هو فوق الأنا لا يكون بالضرورة مكبوتاً في اللاوعي: حيث يمكن قبول بعض المحظورات كما بعض الدوافع. وعلى عكس ذلك، فإن كل ما هو من الأنا لا يكون بالضرورة وعياً أو سابقاً للوعي: حيث يمكن أن تكون آليات الدفاع عن المثل الأعلى للأنا غير واعية.

هذه المقولات الداخلية الكبرى في الشخص ليست معروفة كأمكنة، بل كأشخاص متنافسين يحمي كل منهم اهتماماته. هذه التشبيهية وضعها ج. لاپلانش وج. ب. پتاليس في كتابهما (مصطلحات التحليل النفساني): «إن التصور الذي

(1) H. F. Ellenberger, A la découverte de l'inconscient, Simep Ed., 1974, P.462.

يقترحه فرويد يفترض تعارضاً دائماً، منذ تكوين فوق الأنا، بين الأنا والهذا، كتعارض اختاره الأنا الذي يحاول إرضاء مقتضيات الهذا من جهة، والمواظبة على محظورات فوق الأنا من جهة أخرى (يضع نفسه حكماً)». فيخضع الطفل في بادىء الأمر كلياً لمبدأ اللذة التي تجد منشأها في الهذا، لكن عليه أن ينحني شيئاً فشيئاً إلى «مبدأ الواقع» يعني لتدبير الهذا وفوق الأنا. ويجري الأمر كما لو أن الأنا تتصرف كشاهد متسامح ونبيه للتعارض العائلي.

لنوضح عمل الجهاز النفساني بمثل منقول عن ب. داكو: «مرت امرأة شابة أمام مجموعة من الرجال. فجاءت ردة فعلهم «بالصفير إعجاباً». فما الذي جرى في حقيقة الأمر؟ من الواضح أن أساس هذا الصفير الإعجابي هو الجنس: ذكر أمام أنثى. فالوعي الباطن لهؤلاء الرجال يرسل دافعاً جنسياً موجهاً نحو المرأة، ما هو طبيعي وغريزي. فلنفترض الآن أن هؤلاء الرجال كانوا أناساً بدائيين جداً، ولم يسمعوا مطلقاً كلاماً عن الأخلاق والدين والحياة الاجتماعية واحترام الآخرين إلخ، وأنهم ذهنياً قرود الغابة. فماذا تكون ردة فعلهم الموجهة من الهذا فيهم؟ ربما ينقضون جنسياً على المرأة... كما يرى ذلك في بعض حالات الذُهان الخطر، الذي تكون الغريزة فيه حرة من أي قيد. بيد أن هذا الدافع الجنسي الصرف يجري إيقافه من قبل رقابة الأنا الأعلى. وإذا كان هؤلاء الرجال أصحاء أخلاقياً، فلا يحصل شيء من الكبت. لكن هذا الدافع الجنسي ستجري تنقيته، ويتنكر قبل الوصول إلى الوعي. ويصبح الدافع الفظ صفيراً إعجابياً. ويكون هؤلاء الرجال بالتالي واعين لصفيرهم ولدافعهم الجنسي لكنهم يظلون غير واعين لـ «التنقية» التي جرت في داخلهم».

إن مفهوم اللاوعي أساسي في سيكولوجية فرويد. فهو يقود المحللين النفسانيين إلى طرح «واضح بأن الوعي مخادع، وبأن معطياته المباشرة هي تنكرات أو أشكال من ردات الفعل، أكثر من كونها بديهيات لأمور صحيحة، أو تنظيماً دينامياً حقيقياً لمعنى محركات الفعل التي تخفى بشكل أساسي على الذات الفاعلة كما على المراقب السطحي»[1]. ويكون نموذج إنسان فرويد بالتالي هو نموذج إنسان توجهه دوافعه التي تخفى عليه. فما هو معنى السلوك البشري، في هذه الحال؟ السيطرة

(1).P. Gréco, Epistémologie de la psychologie, in Logique et cannaissance scientifique, Gallimard, 1967, p. 942.

على الدافع أم السماح لها بالتحقق؟ إن تلاميذ فرويد ينقسمون حول هذه المسألة.

IV ـ آليات الدفاع أو تحول الدوافع

يصبح عدد من الدوافع والرغبات، بسبب التربية والتجارب الشخصية، غير مقبول أخلاقياً من قبل الأنا. بيد أن بعض عناصر العالم الخارجي يحفز هذه الرغبات، ويقلق الفرد بالتالي. وقد أظهرت أبحاث فرويد السريرية وجود ردات فعل بيو ـ نفسانية دفاعية مخصصة لتجنب أو لإزالة هذا القلق الداخلي. ولهذه العمليات البيو ـ نفسانية غاية دفاعية ضد القلق الداخلي، وتدعى آليات دفاع الأنا. وأصبحت هذه الآليات الدفاعية هامة جداً، بعد عام 1923، يعني بعد النظرية الثانية للجهاز النفساني. وجرى ربط تفسيرات المرض الذهني بتعابير التعارضات النفسانية بتفسيرات التعابير الدفاعية للأنا ضد الدوافع والقلق النفسانية بتفسيرات التعابير الدفاعية للأنا ضد الدوافع والقلق الداخلي باستعمال آليات دفاع الأنا التي وضعت نظريتها ابنة فرويد أنّا[1]. وتخص هذه الآليات الدفاعية الحيز غير الواعي من الأنا.

ويوجد تقريباً حوالي عشرين آلية دفاعية للأنا جرى وصفها عادة في أدبيات التحليل النفساني. ويمكن تصنيف جميع هذه الآليات الدفاعية في أربع فئات: الكوابح، الاسقاطات، التساميات والإلغاءات[2]. ولما كنا قد تحدثنا عن الكبح، فإننا سنعرض بسرعة للفئات الثلاث الأخرى.

فأسقط تعني أرجع الدافع إلى عنصر خارجي. والحركة الأساسية في الإسقاط هي الدفع نحو عنصر خارجي. وتجري العملية ذاتها في «الإزاحة» و «التثبيت» حيث يحوّل الدافع الذي يراد التخلص منه إلى موضوع بديل. وفي «التحول نحو الذات» لا يمكن للدافع أن يُسقط نحو الخارج ولا أن يثبت على موضوع بديل. وموضوع التحويل الوحيد الذي يعرض أمامه هو الفرد ذاته. في هذه الحالة، يعود الإسقاط على الفرد. وتختلط عملية الإسقاط، مع عملية الإلغاء في آليات «دمج» و «اندماج مع المهاجم».

(1) A. Freud, Le Moi et les mécanismes de défense, PUF, 1949.
(2) A. Mucchielli, Les mécanismes de défenses, «Que sais-je?» no 1899 PUF, 1981.

وفي التسامي، يتعرض الدافع لتحول يجعله مقبولاً اجتماعياً. فيعني ذلك تمويهاً حقيقياً لهذا الدافع. تلك هي العملية التي نجدها في «التسامي» بالمعنى الحصري. كما تجري هذه العملية لتحويل الدافع في «إعمال الفكر» الذي يحول الدافع إلى فكرة محدودة، كما أن ذلك هو ما يجري في «العقلنة» التي هي عمل عقلي لتقديم الدوافع وجعلها مقبولة منطقياً واجتماعياً. وتختلط عملية التسامي في النهاية مع عملية الكبت في «العزل» ومع عملية الإلغاء في «النفي التعصبي».

أما الإلغاء الرجعي، فإنه يستهدف محو ما قد حصل وبقي كذكرى غير واعية مقلقة، بواسطة سلوك معين. ذلك ما حصل في «تكوين ردة الفعل» حيث يتكون سلوك معين ضد رغبة معينة بهدف إلغائها. وتجري العملية ذاتها في «التعويض» الذي هو تصرف يستهدف نفي شعور لا يطاق. كذلك، فإن «الارتداد» هو القيام بتصرف معين، أخذ من مخزن التصرفات القديمة، كما أن «الانقباض» تصرف يستهدف إلغاء حالة مقلقة.

٧ ـ عقدة أوديپ ومركب الخصاء

عقدة أوديپ. ـ حالة أوديپ هي الوضع العاطفي للطفل، في العمر بين الثلاث والخمس سنوات، حين تظهر لديه رغبات الحب نحو الأهل من الجنس المقابل، ومن جهة أخرى عداء غيور، مع رغبة في الموت، حيال أفراد الأهل من الجنس ذاته. والأشكال النهائية لهذا المركب متنوعة. وقد تحدث فرويد عن «الأشكال الإيجابية» حين تكون عقدة الصبي في إرادة قتل والده ليتزوج أمه (قصة الملك أوديپ التي استخلص فرويد منها اسم عقدته) أو عقدة الفتاة التي تتمنى إزالة أمها للتزوج من أبيها، وعن «الأشكال السلبية» حين يوجد الحب للأهل من الجنس ذاته والكره الغيور لهم من الجنس المقابل. ومن جهة أخرى تتعرض هذه العقدة، عقدة المشاعر المتناقضة والعنيفة للكبت أو لسوء الحل. لأنها من جهة، رغبة محرمات ورغبة قتل، فتلتقي بالتالي مع المحظور الاجتماعي للزنى والتجريم الاجتماعي لرغبة القتل، ومن جهة أخرى، لأن تعبيراتها الساذجة تحدث ردات فعل من جانب الأهل، تكون هي ذاتها مسببة للقلق. وينتج عن هذا القلق، في حوالي الخامسة من العمر، طمر العقدة في «اللاوعي» «بالكبت»، مما يفتح مرحلة تدعى «الكمون». وعند تفتح الغريزة

الجنسية في مرحلة البلوغ، تصبح العقدة فاعلة، وتلعب دورها الحاسم لتوجيه الرغبات الجنسية للفرد البالغ.

عقدة الخصاء .. وصف فرويد هذا المركب في عام 1908، خلال عرض أفكاره حول حالة «هانس الصغير». ويرتبط مركب الخصاء بالقلق الناجم عن الشعور بالذنب الناشىء عن عقدة أوديپ. فيولِّد الخوف من العقاب الناشىء عن الرغبات المستنكرة لدى الصبي وهْم خصائه من قبل الوالد (سيقطع له القضيب) ولدى الفتاة وهْم خصائها من قبل الأم (قطعت لها القضيب لهذا ليس لها قضيب). كل هذا غير ممكن إلا في فكرة العمر بين الثلاث والخمس سنوات، حيث يتميز هذا العمر بالاهتمام بانتصاب العضو الذكري. و «لا تُدرك وحدة مركب الخصاء عند الجنسين إلا من هذا الأساس المشترك: حيث يرتدي موضوع الخصاء. . . انتصاب العضو الذكري - أهمية متعادلة لدى الفتاة الصغيرة والصبي الصغير، ويكون السؤال المطروح ذاته: عنده انتصاب ذكري أم لا»[1]. ويلعب قبول جنسه الأساسي للإمكانية الاعتيادية اللاحقة لإثبات الذات، دوره بين ثلاث وخمس سنوات.

وتعتبر جميع مركبات الحياة اليومية مظاهر متحولة لهاتين العقدتين الأساسيتين للعاطفية القديمة وأشكال تطورها، ولا يمكن الأمل بأية تصفية للعُقد الصغرى دون أن يصل الطبيب النفساني إلى هذين المصدرين اللذين هما ذاتهما: عقدة أوديپ ومركب الخصاء.

VI - المرض الذهني والعُصاب

يرتبط المرض الذهني، بالنسبة إلى المحلل النفساني، بالدوافع وعدم إمكانية تلبيتها أمام الكبت الصادر عن الأنا أو عن الواقع الخارجي، أو كذلك عن كون الدوافع، بعد تثبيتها، لا تريد التغير.

«يصاب الأشخاص بالمرض حين ترفض في الواقع تلبية حاجاتهم الجنسية، بعد سلسلة من العقبات الخارجية أو من عدم الكفاية في التكيف. فنجدهم حينذاك يلوذون بالمرض، لكي يستطيعوا بفضله الحصول على ملذات حرمتهم الحياة منها

(1) J. Laplanche et J.-B Pontalis, Vocabulaire de la psychanalyse, PUF, 1975, p. 15.

[. . .] وتكون الأعراض المرضية جزءاً من الانفعالية الغرامية للفرد، أو حتى حياته الغرامية كلها، والابتعاد عن الواقع، وذلك هو الميل الأساسي والخطر الأساسي كذلك للمرض. ولنضف أن مقاومة مرضانا للشفاء يعود لسبب بسيط، بل لعدة أسباب. فليست «أنا» المريض فقط هي التي تأبى بقوة ترك كوابت تساعده على الإفلات من استعداداته الأصلية، لكن الغرائز الجنسية، هي أيضاً، لا تتمسك أبداً بالعدول عن التلبية التي يوفرها لها البديل المصطنع بالمرض، طالما أنها تجهل ما إذا كان الواقع سيوفر لها شيئاً أفضل»[1].

فتواجه الدوافع الباحثة عن الإرضاء بالتالي إلحاحات الأنا التي تحاول قمعها أو جعلها «معقولة». ومن هذا الصراع ومن هذه التعارضات تولد الأمراض الذهنية.

«لنلق [. . .] نظرة على ما يشكل اضطراباً «عصبياً»: فمن جهة، «أنا» مقيدة في تركيبها، دون تأثير على جزء من «هذا»، وملزمة بالعدول عن ممارسة جزء من فعاليتها لكي تتجنب صدمة جديدة مع ما هو مكبوت، ومنهمكة في معركة خاسرة ضد الأعراض، ترفض طموحات مكبوتة، ومن جهة أخرى، «هذا» في داخلها تستقل غرائز منعزلة، وتلاحق أهدافها بذاتها» دون الإلتفات إلى الاهتمامات العامة للكائن، ولا تحترم قوانين علم النفس الأولية التي توجه أعماق «الهذا» [. . .] حينذاك تظهر لنا عناصر العُصاب في هذا الشكل البسيط: «الأنا» تحاول خنق بعض أجزاء «الهذا»، لكنها تفشل، وتثأر «الهذا» ويكون العصاب بالتالي نتيجة التعارض بين «الأنا» و «الهذا»، وتشارك فيه «الأنا» لأنها لا تستطيع العدول عن ارتباطها بوقائع العالم الخارجي. ويكون التعارض بين العالم الخارجي و «الهذا»، وبما أن «الأنا» المخلصة لجوهرها الحميم، تنحاز إلى العالم الخارجي، تدخل في تعارض مع «الهذا» الذي يخصها. لكن [. . .] واقع هذا التعارض ليس هو الذي يشترط المرض - هذه التعارضات بين الواقع و «هذا» لا يمكن تجنبها، وأحد الواجبات الثابتة للأنا هو التوسط بينهما - لكن الذي يسبب المرض هو التالي: «الأنا» تستخدم لحل التعارض وسيلة غير كافية هي الكبت. ومع ذلك، فإن السبب هو أن «الأنا»، حين

(1) S. Freud (1909), Cinq leçons sur la psychanalyse, Payot, trad. franç., 1953, p. 169.

عرضت لها هذه المهمة، كانت قليلة التطور ودون قوة. وفي الواقع تجري الكوابت الحاسمة في الطفولة الأولى»[1].

ويعزو فرويد العديد من حالات العُصاب إلى السبب الجنسي.

«الاكتشاف الأول الذي يقود إليه التحليل النفساني، هو أن الأعراض المرضية عادة ما تكون مقترنة بالحياة الغرامية للمريض، ويبين لنا أن الرغبات المرضية هي من طبيعة العناصر الجنسية، ويرغمنا على اعتبار اضطرابات الحياة الجنسية كأحد أهم أسباب المرض»[2].

ثم يجعل من المسألة الجنسية السبب الوحيد لهذه الحالات العُصابية، ويؤكد أن أي نوع من الشذوذ الجنسي يليه مباشرة نوع موازٍ من العُصاب الذي يتسبب به.

«الحياة الجنسية الطبيعية لا تستوجب أي عُصاب. . . فغالباً ما أُتيح لي أن ألاحظ أن رجلاً كان يكتفي بتلبية جنسية معينة غير تامة، بالاستمناء باليد مثلاً، قد أصيب بنوع محدد من العُصاب الآني، الذي يخلي المكان لشكل آخر حين تتبنى الذات الفاعلة نظاماً جنسياً آخر، لكنه قلما يوصى به. وكان في مقدوري معرفة التغير في شكل التلبية الجنسية حسب تغير حالة المريض»[3].

مع ذلك، يجب أن نعلم أن كلمة «جنسي» وما يشتق منها من مصطلحات فرويد، قد استخدمت في مفهوم أوسع بكثير من الشأن الطبيعي، وتتعلق بكل ميدان الحنان وإبداء العاطفة[4].

إن فعل الجهاز النفساني، بشكل عام، يمت بالصلة «إلى مسرح من الشخصيات» التي تتصارع فيما بينها[5]. ويمكن لهذا النموذج من التعارض الاجتماعي أن يصل إلى المرض الذهني. ويوضح روكلين بجلاء نموذج مرجع

(1) S. Freud (1925), Ma vie et la psychanalyse, Gallimard, 1928, p. 155.
(2) S. Freud (1909), Cinq leçons sur la psychanalyse, Payot, 1923, p 81.
(3) S. Freud (1916), Introduction à la psychanalyse, p. 413-414.
(4) J. Nuttin, psychanalyse et conception spiritualiste de l'Homme, Vrin 1951, p. 28.
(5) D. Lagache, Le modèle psychanalytique de la personnalité, in Les modèles de la personnalité en psychologie, Symposium de l'Association de psychologie scientifique de langue française, PUF, 1965, p. 99.

فرويد، فيما يخص المرض الذهني مذكراً بما أوضحه فرويد ذاته في عام 1909، بمقارنة المرض الذهني بالصراع الاجتماعي[1]. ويقول فرويد، إننا، حين نتحدث إلى جمهور من المستمعين في إحدى المحاضرات، نفترض «أن شخصاً تسلل بين جمهور الحضور المصغي، ومنعني بضحكاته وثرثراته من متابعة محاضرتي. وقام بعض الحضور الأقوياء بطرده إلى الخارج، وتولوا الحراسة لتلافي عودته. وخطرت في بالنا فكرة ورغبة أننا لا نستطيع قبوله، لأسباب أخلاقية. وينشأ تعارض حينذاك وتكبت هذه الفكرة وهذه الرغبة، وتبعدان إلى خارج ميدان أفكارنا الواعية. وتستمران في الوجود في اللاوعي، لكن حاجزاً يمنع عليهما الوصول إلى دائرة الوعي. هذا الحاجز هو الذي يتطابق مع المقاومة التي يواجه بها المريض الطبيب الذي يحاول بأسئلته العودة إلى الحدث الذي كان مصدر الأعراض. ويستأنف فرويد مقارنته. ولا يتوقف المستمع المطرود عن استمرار وجوده. ويطرق الباب، ويصرخ، ويبذل الكثير لخلق الاضطراب في الصالة أكثر من السابق. حينذاك يقوم رئيس الجامعة بدور الحكم. فيبحث عن المخل بالنظام، وربما يسمح له بالعودة إلى الصف إذا التزم عدم تعكير الحضور. كما أن الفكرة المكبوتة في اللاوعي لم تكن أقل استمراراً في الوجود، وفي تعكير سلوك المريض بمظاهر متنكرة رمزية. ليس هي غير الأمراض التي يعانيها. والطبيب مثل رئيس الجامعة. عليه إيجاد المخِلّ بالنظام خارج الدائرة الواعية وإعادته إلى داخلها. حتى وإن حدث تعارض مفتوح جديد، يمكن لهذا التعارض بفضل الطبيب أن ينتهي بشكل سعيد؛ حيث يمكن للمريض أن يعترف بأنه أخطأ بكبت الفكرة والقبول بها، كما يستطيع إقصاءها بشكل فعال ونهائي، أو تحويلها إلى فكرة مقبولة، يعني تساميها. ولإيجاد الفكرة المكبوتة، على الطبيب قهر المقاومة على باب دائرة الوعي. ويستطيع تفسير ما يقوله المريض بمهارة حين يطلب منه صياغة جميع أفكاره بحرية، ويستطيع تفسير أحلامه وأفعاله الصغيرة «غير الإرادية» في الحياة اليومية، وحتى طُرَفه. ولا شيء من هذا يكون طارئاً. بل هي في الواقع مظاهر مستترة، و «بدائل» أفكار مكبوتة يجب معرفة الإقرار بها».

(1) M. Reuchlin, Histoire de la psychologie, PUF, 1957, p 74-75.

VII ـ صدمات الطفولة ومراحل التطور العاطفي

يشدد فرويد، في كل أعماله، على ضرورة العودة إلى صدمات الطفولة لمعالجة المرض الذهني، لأن منشأه فيها.

«إن العمل التحليلي الضروري لتفسير مرض معين والخلاص منه، لا يتوقف أبداً عند أحداث العصر الذي جرت فيه، بل تعود دائماً إلى مرحلة البلوغ والطفولة الأولى للمريض؛ ففيها تكونت الأحداث والانطباعات التي حددت المرض اللاحق. وبمعرفة هذه الأحداث يمكن تفسير الحساسية حيال الانفعالات اللاحقة، وبإعادة هذه الذكريات المنسية إلى دائرة الإدراك يمكن الوصول إلى القدرة على إزالة الأعراض. ونصل هنا إلى النتائج نفسها كما في دراسة الأحلام، وكشف الرغبات المكبوتة في الطفولة التي فرضت تأثيرها لتكوين الأعراض التي لولاها لأخذت ردات الفعل على الانفعالات اللاحقة مسارها الطبيعي. وإنني أعتبر هذه الرغبات القوية للطفل، جنسية بشكل عام»[1].

والمقصود هنا إحدى التعليمات الأكثر أهمية في التحليل النفساني، نظراً إلى النتائج التي تنطوي عليها. فكيف يمكن أن نفكر في تغيير الأمور في حين أنها راسخة في الحياة النفسية منذ الطفولة الأولى؟ وما هي التأثيرات التي يوفرها علماء النفس والأطباء النفسانيون والمربُّون. . . على الأمراض العائدة للطفولة الأولى؟ ويجدر بنا أن نسجل أن إجاباتهم متشائمة؛ فغالباً ما جر هذا التشاؤم معه، بصورة طبيعية، الشكوى من العائلة، والمجتمع بأسره. وفي الواقع، إن أسباب السوء وإمكانية التدخل بالتالي، خارج المتناول ونميل بشكل طبيعي نحو الشكوى من المجتمع (أو من المدرسة أو العائلة). ولم نرَ أن هذا النقد قد استحثه الوزن المخيف الذي أعطته نظرية فرويد للصدمات الماضية. على عكس ذلك، سنرى كيف توفرت لعلم النفس الجديد الذي أعطى الأفضلية لما يجري هنا والآن في نظام العلاقات الفردية، إمكانية التدخل وتغيير مجرى الأمور التي كانت تخفى على المحللين النفسانيين.

فضلاً عن ذلك، إن التحليل النفساني يعرض نموذجاً لتطور الشخصية المميزة

(1) S. Freud (1909) Cinq leçons sur la psychanalyse, Payot, 1953, p. 159.

للطفولة. فهي المرحلة التي تتعرض فيها الشهوة (الليبيدو) لتحولات وتشوهات أو لثوابت مرضية تؤدي فيما بعد إلى اضطرابات في السلوك أو إلى أمراض ذهنية. ويمكن التمييز بين أربع مراحل من التطور: المرحلة الشفهية الأولية (المص) المتطابقة مع الفصل الأول من الحياة؛ ومرحلة التلذذ ـ الشرجي التي تمتد إلى السنة الثانية والثالثة؛ ومرحلة الكمون بين سن السادسة والبلوغ، وهي تتطابق مع الهبوط في ضغط الدوافع. وإذا حرمت الذات من التحقيق الكامل لإحدى مراحل تطور الغرائز، يمكن أن يحصل تقدم قبل النضج، وإما التراجع إلى موقع سابق، وبالتالي تحقيق تثبيت الدوافع. ويشكل كل هذا التثبيت استعداداً لعودة الميول التي تميزه، في حال حصول الحرمان مثلاً؛ وتلعب هذه «العودة لما هو مكبوت» دوراً أساسياً في تكوّن العُصاب والانحرافات.

وتكون النتائج النظرية لهذا النموذج الطفولي لتطور الشخصية هامة، ويمكننا القول مع ج. نوتين إن «واقع كون فرويد قد حدد مرحلة التطور النفسي الصحيح بالسنوات الست الأولى من الحياة هو المسؤول عن الفكرة القائلة إن كل قيمة معيارية في الإنسان هي من أصل خارجي ولا مهمة لها غير «كبت» دوافع الغريزة الحية». ولكون فرويد قد حدد المرحلة الناشطة والخلاقة حقاً من التطور البشري في السنوات الأولى للطفولة، فهو يفعل بحيث إنه لا يمتلك من القوى البناءة للتطور اللاحق للشخصية، إلا قوى الرقابة الخارجية والدوافع الداخلية التي تكبحها هذه الرقابة. ويكون وقف التطور الحقيقي للشخصية في المرحلة الطفولية من الأخطاء النفسانية الفادحة للفرويدية الأرثوذكسية، ويتعارض هذا المفهوم مع الوقائع، وما هو مثقل بالنتائج، يجعل أية نظرية ملائمة للشخصية أمراً مستحيلاً. والحقيقة الوحيدة التي هي نقطة انطلاق هذا التفسير الخاطىء، أن بقايا التجارب الطفولية تدخل إلى ما هو الأكثر عمقاً من البنى النفسانية اللاحقة. وهذا اكتشاف ذو أهمية أولية تستحق، من جهة التحليل النفساني، تفسيراً أكثر تطابقاً مع البنية والتكوين الحقيقيين للشخصية البشرية».

VIII ـ نموذج الشفاء: العودة إلى الذكرى الصادمة وإعادتها إلى الضوء

حول هذه النقطة، تعتبر أفكار التحليل النفساني معروفة جيداً. ويقول فرويد ذاته:

«إذا توصلنا إلى إعادة المكبوت إلى الضوء الكامل للنفس ـ ما يفترض أن

مقاومات هامة قد تم تجاوزها ـ يمكن للصراع النفساني الناشىء عن إعادة الاندماج، والذي يريد المريض تجنبه، تحت إشراف الطبيب، أن يلقى أفضل حل لما يقدمه الكبت، فتارة يوافق المريض على أنه يخطىء برد الرغبة المرضية، ويقبل هذه الرغبة كلياً أو جزئياً، وطوراً تتجه الرغبة ذاتها نحو هدف أعلى (هذا ما نسميه تسامي الرغبة)، وتارة أخرى يعترف أن رفض الرغبة كان صحيحاً، لكن آلية الكبت تستبدل بحكم إدانة أخلاقية بمساعدة القضايا الروحية العليا للإنسان، ذلك هو ما ينصر الرغبة في غمرة النور»[1].

هذا المفهوم للفعل العلاجي يلقى مصدره في التجارب على التنويم المغنطيسي في ثمانينات القرن الماضي. فالتجربة التي نقدمها أدناه هي «تجربة مبادىء» يعني تجربة تستخدم مرجعاً ومرسى لمثال التحليل النفساني. وقد ذكره د. لاغاش، كما نوتين، وأقرا بأنه أحد مصادر التحليل النفساني.

وفي الثمانينات من القرن الماضي، كان بين مرضى بروير Breuer فتاة شابة في الحادي والعشرين من العمر. و «كانت هذه الفتاة تعاني اضطرابات «هستيرية» خطيرة، أي تصلبات عضلية وتخدير وسعالاً واستحالة الأكل والشراب، واضطرابات الكلام إلخ.. وكانت هذه المريضة قد أصيبت بالمرض وهي تعتني بأبيها. وفي بعض اللحظات، في حالات من شرود الذهن، كانت تغمغم بكلمات كاشفة. وبناء على طلبها نوّمها بروير مغنطيسياً. وخلال تنويمها المغنطيسي، عرض عليها بروير الكلمات التي كان قد التقطها وأوحت له أن يعرف ما كانت توحي له هذه الكلمات. فحصل بروير على حكايا كاملة مفعمة بالعواطف الشديدة المنطلقة من مشهد كانت فيه فتاة شابة قرب سرير والدها. ولاحظ بروير بدهشة كبيرة أن المريضة كانت تمر بحالة ارتياح بعد هذه الجلسات، وحتى بدت كأنها شفيت خلال بضع ساعات. وكانت المريضة ذاتها، لا تتكلم ولا تفهم إلا الانكليزية، وفي هذه المرحلة من العلاج، كانت تسمي هذا العلاج الجديد، المعالجة بالكلام. في هذه الظروف تكوّنت لدى بروير فكرة وجود علاقة بين أعراض المرض والروايات المثقلة بانفعال

(1) S. Freud (1909), Cinq leçons sur la psychanalyse p. 141.

الفتاة الشابة. وافترض أنه ربما أمكن الحصول على أكثر من تحسن عابر، يلي الإفراغ الانفعالي، إذا استطاعت المريضة التعبير بصورة كلية خلال التنويم، عن الحدث المثير للانفعال»[1].

استخلص فرويد دروس هذه التجربة. وفي المحاضرة التي أجراها في أميركا، عام 1990، عن منشأ التحليل النفساني، قال: «لم يسبق لأحد أن شفى عرضاً هستيريًّاً بمثل هذه الوسائل أو لم يحصل أن اقترب من فهم سببها. فشكّل ذلك اكتشافاً بارزاً لإنعاش الأمل بأن تكون أعراض أخرى، وربما معظمها، قد نشأت بهذا الشكل ويمكن إبعادها بالطريقة نفسها»[2]. فتظهر الأعراض كبقايا تجارب مثقلة بالانفعالية كان يدعوها فرويد «الصدمات النفسية»[3].

IX ـ التحـوُّل

كذلك اكتشف بروير، خلال عملية تحرير العواطف المكبوتة بالتنويم المغنطيسي لدى أنًا Anna، في عام 1882، حيث تكون علاقة المعالج والمريض عاملاً أساسياً في المعالجة النفسانية. سجل فرويد في كتابه، دراسات حول الهستيريا (1895)، أن «مريضته ارتعبت لاكتشافها أنها تحول على شخص الطبيب الأفكار المقلقة التي تتولد من محتوى التحليل، وأن هذا أمراً يحصل بشكل متكرر ومنتظم في التحليل».

التحول بالتالي هو تفعيل ذكرى مكبوتة في اللاوعي، فيعيد المكبوت بهذا التفعيل، بناء العلاقة الحالية مع الطبيب. وينشأ التفعيل ذاته من مقاومة الاستذكار المرغم وتجنبه لأنه «المخرج الأفضل». ويفهم من ذلك لماذا «تتجمع جميع التعارضات على الأرضية التحولية». وهكذا يقول فرويد: «ينتهي المريض إلى أن يشتمني، أنا ومن معي، بالشكل الأكثر فظاظة والأكثر إهانة، غير أنه لم يُبد لي،

(1) J. Nuttin, Psychanalyse et conception spiritualiste de l'homme, Ed. universitaires de Louvain, 1969, p. 16.
(2) S. Freud, Ueber Psychoanalyse, Gesammelte Werke, VIII, P. 8 et Breuer et Freud, Studien über Psychology, 1910, vol 21, p. 181-218.
(3) S. Freud, The origin and development of psychoanalysis, p. 185; The American Journal of Psychology, 1910, vol 21, p 181-218.

بصورة واعية، إلا أكبر احترام. وكان سلوكه يائساً، خلال توجيه إهاناته لي: «كيف تستطيع، يا أستاذي، احتمال الإهانة من قبل نموذج قذر مثلي؟ يجب أن تطردني، وأنا لا أستحق ما هو أفضل من ذلك». كان يقول ذلك، وهو ينهض عن الأريكة ويجري عبر الغرفة. . . وسرعان ما كان يجد تفسير هذا السلوك، فيبتعد خوفاً من تعرضه للضرب من قبلي»[1].

لكن فرويد ظل أسير مفهومه للجهاز النفساني والكبت الذي يكون العُصاب فيه ناتجاً عن عقدة كبت الدوافع وردات الفعل الدفاعية للأنا. وبسبب ذلك ظهر لي التحول كأنه يقظة وتفعيل للميول المكبوتة. فتحولت ذكرى الماضي إلى سلوك في الحاضر، وتصرف المريض خلال المعالجة كما تصرف في طفولته. وحسب هذا التفسير، وفي هذا المنظور يكون تحليل التحول اكتشافاً نفسياً حقيقياً صنعه فرويد. «لكن اكتشاف هذه الظاهرة انخفضت قيمته جزئياً بسبب كون فرويد قد بحث في تفسيره استناداً إلى نظامه وأفكاره حول علم أسباب العُصاب. فضلاً عن ذلك، لم يدفع التحليل النفساني للوضع العلاجي الذي نظمه إلى نهايته، وكان يؤدي بدوره إلى ظواهر أخرى مصنفة تحت الاسم ذاته»[2].

X ـ المعالجة بالتحليل النفساني

في المعالجة النفسانية، يأخذ المحلل النفساني موقع ما فوق الأنا، معطلاً خدع التحول والمقاومة، ويحاول تثبيت طاقات التدخل المعقولة للأنا.

«إن الأنا العصابية هي أنا غير قادرة على تحمل المهمات التي يفرضها عليها العالم الخارجي. . فتخفى عليها جميع تجارب الماضي، وكذلك قسم كبير من خزانة ذكرياتها. ويكون نشاطها مقيداً بالمحظورات القاسية لما فوق الأنا، وتنفد طاقتها في جهود دفاعية غير مجدية ضد مقتضيات الهذا، إلى جانب أن الهجومات المتواصلة للهذا تضر بتنظيمها. ولكونها غير قادرة على تحقيق تركيب حقيقي، وتتمزق بين اتجاهات متناقضة وتعارضات لم تُصنف، وشكوك لم ترفع. في البداية نسمح لهذه

(1) S. Freud, L'Homme aux rats, in Cinq psychanalyses, p.235.
(2) R. Mucchielli, Analyse et liberté, Ed. EAP, 1986, p. 169.

الأنا المستضعفة للمريض بالمشاركة في العمل الذهني المجرد للتفسير، مما يغمر مؤقتاً ثغرات محتواها النفساني، ونأخذ دور سلطة ما فوق الأنا؛ ونحث الأنا على مكافحة كل واحدة من مقتضيات الهذا، والانتصار على المقاومات الناشئة حينذاك. وفي الوقت نفسه نعيد النظام إلى الأنا بتعقب المحتويات والدوافع الصادرة عن الهذا. وباتخاذنا دور السلطة بالنسبة إلى المريض، والبديل عن الأهل، والمربي والأستاذ، يمكن أن نكون مفيدين له. وأفضل ما يمكن القيام به بالنسبة إليه، في دورنا كمحلليْن، هو إعادة العمليات النفسانية، لأناه إلى مستوىً عادي، وتحويل ما أصبح من اللاوعي، وما كان قد كبت، إلى ما يسبق الوعي لإعادته بذلك إلى الأنا. وتلعب بعض العوامل العقلية لصالحنا. . كما تعمل عوامل أخرى ضدنا: فالتحول السلبي والمقاومة التي تبديها الأنا في وجه التنفيس الانفعالي، يعني الغم الناجم عن العمل القاسي المفروض، والشعور بالذنب الناشىء عن علاقات الأنا مع ما فوق الأنا، وفي الأخير الحاجة إلى المرض الناشئة عن التغيرات العميقة لاختزان الدوافع»[1].

وطرح خلفاء فرويد مسألة معرفة أي تأثير يجب أن يُعزى إلى المعالجة التحليلية النفسية. فهل ينبغي أن يقوم على سماع المبرر بلا قيد أو شرط بتفضيل ما فوق الأنا؟ أم ينبغي على العكس، ترك أكبر تفتح لدوافع الهذا، بجعلها مقبولة لدى الأنا، وبتحديد القدرة الكلية لما فوق الأنا الموروثة من الطفولة، أو من مجتمع إكراهي؟ هذا التناوب هو موضع اختلاف متواصل بين المحللين النفسانيين.

خلاصة

لقد طرحنا المفاهيم الرئيسية للتحليل النفسي بالتشديد على نمط النماذج التي تعود إليها والانتقادات الرئيسية المقدمة. كما قدمت مدارس تحليل نفسي متنوعة مفاهيم أخرى مثل التحول، المضاد والمجال والموضوع الانتقالي، والتخيلات، والجهاز النفساني بكليته، ومرحلة المرآة، والأنا ـ الجلد. . . لكنها لم تغير قواعد المنشأ المنطقي للنظرية.

(1) S. Freud (1938), Abrégé de psychanalyse, p. 49 et 50.

الفصل الثاني

تطبيقات التحليل النفساني

يميل التحليل النفساني إلى التفسير الشامل لأنه «ليس هو علماً للفرد فقط، إنه يتعلق بالشأن الاجتماعي» لأن كل شيء يستقي من الواقع النفساني الذي هو الشأن الأول[1]. وتكثر بالتالي أمثلة التحليل، وقد رأينا بعضها خلال ما تقدم من بحث. ونحن مجبرون هنا على التمسك ببعضها.

I - تفسير التصرفات المنحرفة

تفسيرات الإجرام والجنوح.. في عام 1925، في بحث تحت عنوان أنواع من الشخصيات أمام التحليل النفساني، وصف فرويد شخصيات متنوعة أضناها الشعور بالذنب: «يرتكب الشخص فعلاً إجرامياً، لكي يلام أو يعاقب. ويعتبر العقاب حينذاك وسيلة لتلطيف الشعور بالذنب الحاد والمرتبط برغبات أوديپ الموجودة قبل الجرم». وفي مؤلف آخر، يقول فرويد: «كانت مفاجأة أن نلاحظ، حين يصل الأمر إلى درجة معينة من الشدة، أنه يمكن لهذا الشعور بالذنب غير الواعي أن يجعل من شخص معين مجرماً. لكن الأمر مؤكد، فنجد لدى الكثير من المجرمين الشبان شعوراً كبيراً بالذنب سابقاً للجرم وغير لاحق به، وكان هذا الشعور المحرك للجرم، وكان الفاعل قد وجد تلطيفاً يربط هذا الشعور غير الواعي بشيء من الحقيقة والواقع»[2].

هكذا يعتبر الجرم محاولة للعقاب بالتوتر العُصابي الداخلي في موضوع الشعور

(1) E. Enriquez, La psychanalyse concerne directement le social, in L'état des sciences sociales en France, Ed. de la Découverte, 1986, p. 22.

(2) S. Freud, Le Moi et le Soi (1923), in Essais de psychanalyse, Payot, 1948, p 210.

بالذنب (الإدانة الذاتية للمجرم). واستنتج العديد من المحللين النفسانيين المخلصين لمدرسة فرويد أن السارقين وقطاع الطرق ورجال العصابات والمزورين والنصابين والمهربين والمتاجرين بالنساء والعاهرات. . . كلهم كانوا يسعون بوعي للوقوع في القبض عليهم والتعرض للعقوبة. لكن آخرين كثيرين من المحللين النفسانيين قدموا تفسيرات كثيرة مختلفة، لأشكال السلوك الجرمية والجانحة.

ويمكن أن يكون الجرم ردة فعل عدوانية ضد القلق الداخلي. ويفهم هذا القلق ذاته بأوجه مختلفة، فإما قلق من فقدان الاطمئنان الأساسي يؤدي إلى دفاعية حادة للأنا تنهض في الخوف. . . وإما قلق من الخصاء من جانب أب متسلط أو أم متحايلة، ما يدفع الشخص إلى البحث عن إثبات رجولته في مجال آخر غير الجنس (من هنا «اللواطية الكامنة» المعزوة إلى المجرمين). كما يمكن للجرم أن يكون نتيجة لفشل التماثل مع الأب وبالتالي كانعكاس داخلي لصورة فرد من الأهل أو كتثبيت أوديبي على الأم. في هذا المعنى، يكون الجرم الدليل على عدم تصفية عقدة أوديب وأحد وجوه «عدم النضج الأساسي» للجانح. كذلك يمكن للجرم أن يكون علامة اضطراب في الجهاز النفساني. وذلك في اختلاف وعدم نضج الأنا أو ما فوق الأنا. وفي هذه الحالة الثانية، لم تستطع الأنا أن تبني نفسها بشكل كاف، بسبب جروح ناجمة عن حالات حرمان متنوعة. في هذا الواقع «لا يكون الجانح قادراً على العدول عن التلبية الفورية لطلباته الغريزية»، ولا أن يرتفع إلى مستوى القواعد والمبادىء الأخلاقية للمجموعات التي يعيش بينها. كما قُدِّم مفهوم آخر: حيث تكون الأنا قد بقيت «ذات بنية بدائية» سادية مازوشية، وفي مثل هذه البنية تنتظم التعارضات بالتعدي وخلاله.

إن تنوع التفسيرات المقدمة من قبل المحللين النفسانيين يقلل إلى حد كبير المدى التفسيري للنظرية الفرويدية. ويمكن أن يظن أن ذلك يبرهن على أن شيئاً يعرقل تطبيق نظرية التحليل النفساني على فهم الظاهرات النفسانية للحياة اليومية. كما يمكن أن يحصل الانطباع بأن «تفسيراً» يصبح ممارسة للمهارة الذهنية، بهدف تطبيق مفاهيم نظرية على واقع لا يُترك له أن يتداخل فيه.

II ـ تفسير الظاهرات الاجتماعية ـ السياسية

تفسير الاتجاه البيئوي. ـ يمكن تفسير الاتجاه البيئوي الجذري كتركيب من

الآليات الدفاعية. فيوفر رفض الواقع الاجتماعي والتكنولوجي نقد الدولة، والطبقات والقيود، والقيم المطبقة، والتقدم المادي والعلمي، ويظهر كأنه «رفض للواقع». ويعبر عن هذا الرفض في تكوين جماعات ترغب في النفي التام للمجتمع. وتكون العلاقات والتبادلات وأنظمة القرار والعمل في علاقة تداخل وهمية مع مثيلاتها في المجتمع المهجور. وكذلك بالنسبة إلى تصرفات التعادل في العلاقات. وتكون الأنظمة والسلطات تصرفات إعداد تفاعلي مخصصة لنفي مشاعر الدونية والفشل. ويجمع الاتجاه الزهدي المعلن (التغذية البيانية البسيطة، والألبسة القديمة) جملة من تصرفات الإلغاء ذات المفعول الرجعي المخصص لإزالة مشاعر الحسد والمشاركة الجرمية التي ترتكب في مجتمع «الاستهلاك». ويكون التعلق بالزعماء الذين تمرسوا في نقد المجتمع والهامشية الاجتماعية تشخيصاً ذا طابع نفي لنماذج سلطة الأهل والمجتمع. وتمزج الشكوى من المجتمع، التسامي (بعقلنة الاتجاه السلبي الاجتماعي) والإسقاط بالتشخيص على المعتدى حيال المجتمع المقلق والمنفر. وتحمل شكوى المجتمع، في لائحتها الطويلة من الحجج «العقلية» إلى الأنا المعذبة بالرفض الاجتماعي، التهدئة مع التفسير المبرىء لها والمضحي بها. وفي الوقت ذاته تبرىء بالنسبة إلى البعض العدوانية كلها، وتبرر جميع أشكال العنف التي تصبح، بشكل سحري تقريباً، «من الدفاع الشرعي». وهكذا يمكن رؤية تدخل إسقاط الحقد ضد المجتمع الذي يصبح مجتمعاً حاقداً، وينبغي حماية الذات منه.

تفسير العنصرية.ـ يمكن تفسير العنصرية على أنها تعود إلى عقدة أوديبية لم تجد حلها، كما إلى الآليات الدفاعية. و «تؤدي بنا هذه المشكلة من التعارضات إلى مسألة ذات متناول سياسي كبير، ويكون من المفيد جداً تعميقها. ويقصد هنا مشكلة العنصرية التي سنعود إليها في مكان آخر، وفي الواقع العنصرية «المعكوسة». . . إذا سلمنا بأن واجب اليسار النضال من أجل تحرر الشعوب الملونة أو المستعمرة، نجد أنفسنا أمام المشكلة التالية: كيف حصل أن انحاز المحتجون أو اليسار عامة بنشاط وتعاطف، إلى الشعب الجزائري والڤيتنامي، في حين أن المعركة البغيضة التي يلاحقها الشعب الكردي لتحرره، كما المأساة الرهيبة لبيافرا إلى حد معين، وحرب اليمن أو إبادة أجيال من السودانيين، أبقتهم صامتين؟ أمام هذا المنظور يبقى الجواب واضحاً: إذا تعاطف الشباب مع الجزائر والڤيتنام، فذلك لأن الآخر يتعلق بالأعداء

القدامى لفرنسا و «كم هو شاب جميل، قاتل أبي»، في حين أن البيافريين قد ذبحوا من قبل النيجريين. وبالنسبة إلى الطلاب، فإن لأعداء الآباء الحق في الوجود، يعني بإمكانهم أن يقتلوا ويستعمروا، لكن وجود الأب عرضة للاحتجاج، وتكون جميع المناسبات ملائمة لتذكيره بكل حماسة، بأنهم في موقع الدفاع، لكنهم في الأصل كانوا في موقع الهجوم. وبتعابير أخرى، إن العودة إلى الأب هي التي تفسر لنا طبيعة التعاطف الظاهري مع المضطهدين، حسب المبدأ القائل «أعداء أبي هم أصدقائي»[1].

III ـ تحليل الأحلام والنصوص

لقد طور التحليل النفساني مجالاً كاملاً من التحليل لروايات الأحلام. لنأخذ مثالاً مشهوراً: حلم الدراجة[2].

«حلمتُ أنني ركبت دراجة،» واتجهت نحو حديقة، وعلى مدخلها رأيت العجلة الأمامية قد تسرَّب منها الهواء. ترددت في الوقوف، لكن حارساً كان هناك، لفت انتباهي إلى وضع العجلة. فلاحظت أنني كنت في قميص شبه عار. نزلت عن الدراجة، وعدت أدراجي متجهاً إلى صاحب كاراج وطلبت منه إصلاح العجلة».

إن طريقة التحليل النفساني تبحث عن «المحتوى الكامن» المخبأ تحت المحتوى الظاهر والمموه به. ولـ «كشف المعنى» يجب الانتقال من سجل إلى آخر بواسطة رمز توفر النظرية مفاهيمه. والطريقة المستخدمة هي طريقة تحليل المحتوى الذي يدعى «التحليل الرمزي الأساسي». تلك طريقة تقوم على استبدال الرموز أو الاستعارات بممثليها. وتكون المفاتيح الأساسية التي يستخدمها المحلل النفساني معروفة جيداً. وإذا لم نعرفها في حكاية أو حلم، يجري البحث عنها كما يلي: نضع أنفسنا في البدء في مجال الحياة العاطفية والجنسية، ثم نقوم بعد ذلك بـ «تحويل مجازي» للعناصر الأساسية للحلم. ومن المعلوم أن المجاز هو استخدام تعبير ملموس بدلاً من مفهوم مجرد بالاستبدال المماثل «مثلاً: شتاء الحياة يعني الشيخوخة

(1) André Stéphane, L'univers contestationnaire, Payot, 1969, p. 31-32.
(2) René Laforgue, Psychopathologie de l'échec, Ed. Payot, 1950.

مجازاً». والتحويل المجازي هو المسار المعاكس لبناء مجاز معين: حيث ننطلق من عنصر ملموس في الرواية ونتساءل عما يمكن أن يمثل في حقل نشاط اعتبر مرجعاً (عندي تعبير الشتاء، وأعلم أنه يقصد مجال أعمار الحياة، فأستنتج أن الشتاء يمثل الشيخوخة). ففي منهج التحليل النفساني، ولإيجاد ما يمكن أن يمثل عنصراً ملموساً من الكلام، نتساءل عما يمكن أن يمثله في ميدان الحياة العاطفية والجنسية. وبعد ذلك «التحويل المجازي» تقرأ الرواية مع استبدال عناصرها بما تمثل هذه العناصر[1].

وفي الحلم الذي نهتم به، إن العناصر الرمزية الأساسية هي: الدولاب المنفوخ، الدولاب الفارغ من الهواء، الحديقة، الحارس. هذه العناصر هي مجازات بالتالي. وإليك تفسير الحلم المعطى من قبل د. لافورغ ذاته إلى مريضه: «أنت تعاني عجزاً جنسياً: و «دولابك الأمامي» ينفِّس لحظة الدخول إلى «حديقة ڤينوس». ويرمز الحارس إلى الأنا الأعلى لديك، الوارث لمحظورات الأهل والقانون في طفولتك ويمنعك من لمس الثمار المحرمة. وما فوق الأنا لديك يصيب الدوافع العادية بالشعور بالذنب. فيصبح عضوك الجنسي - ومعه النشاط الجنسي - مخجلاً. من هنا تنشأ مشاعر القلق والدونية والفشل. وتترك طاقتك الجنسية بالتالي الطرق الطبيعية ويصبح لديك ميل كامن إلى اللواط (صاحب الكاراج رجل). ووحدها زوجتك، حين ترتدي ثوباً رجالياً أبيض ومطمئناً توفر لك مظهراً من النشاط الجنسي».

IV - التفسير في التحليل النفساني

«التفسير هو الفعل التحليلي النفساني بامتياز» هذا ما قاله د. لاغاش[2] كما يقول إن هذا التفسير «يقوم على تطبيق بعض علامات معروفة تلعب دور قواعد ذات معطيات ملموسة». ففي التحليل النفساني تكون هذه «القواعد» هي المراجع النظرية الأساسية التي عرضناها (ضغط الدوافع التي تريد الخروج من الذات (مبدأ اللذة)، نقاشات بين الهذا والأنا وما فوق الأنا (تعارضات، مصدر العُصاب)، دفاع الأنا ضد

---

(1) A. Mucchielli, L'analyse formelle des rêves et des récits d'imagination, PUF, coll «Le Psychologue», 1993. Y Voir la critique de ce type d'analyse et les comparaisons avec d'autres méthodes.

(2) D. Lagache (1955), La psychanalyse, PUF, «Que sais-je?», p. 113.

الدوافع، التأثير على تصرفات عقدة أوديب...). فالتفسير التحليلي النفساني يجري إذاً «بوضع رسوم بيانية جاهزة لاتصالات المريض»، وذلك هو ما يؤخذ عليه بحق. وهذا الجهد لـ «تفسير كل شيء» بواسطة شبكة مطالعة وحيدة جعل التحليل النفساني يوصف بـ «المدرسي»، يعني بخطأ علمي ينطلق من حقائق غير ثابتة، ويصل بالاستقراء إلى نتائج ليست أكثر ثباتاً من مقدمات الانطلاق[1].

هذه الأمثلة تتحدث عن نفسها. وتبين كيف أن التحليل النفساني لم يتمكن من توفير تحليلات متماسكة ووجيهة للظاهرات النفسية للحياة اليومية، وكيف أصبح نظام تفسير مستخدم في التحليل الأدبي أو في تحليل الظاهرات الاجتماعية من قبل اختصاصيين بارعين في استعمال مفاهيمه.

إن التحليل النفساني يُظهر نظاماً بسيطاً وتماسكاً من المفاهيم وبدرجة كبيرة من العمومية. وينطبق على جميع الحالات. ويستمر بدون حياء كل ما يظهر من تجديد: حيث أصبح التمثيل النفساني تمثيلاً نفسانياً تحليلياً، وأصبحت دينامية المجموعة تحليلاً نفسانياً للمجموعة... وأمام نجاح علم النفس الجديد، يزعم البعض أن التحليل النفساني هو علم التفاعلات بين مختلف الآخرين...

(1) P. Debray- Ritzen, La scolastique freudienne, Fayard, 1972.

القسم الثاني

المساهمات العلمية
المؤدية إلى علم النفس الجديد

كان التحليل النفساني يستند إلى الأفكار والنماذج والتجارب التي جرت في الثمانينات من القرن الماضي. وامتلك فرويد عبقرية عرض بنية خلقت «وضوحاً جديداً» لمجمل معاصريه. فكان يجمع، في كلٍّ متماسك، مفاهيم علم الأعصاب الدماغية، والأفكار الفلسفية عن اللاوعي (التي تعززها تجارب التنويم المغنطيسي) وعن أهمية شؤون الجنس.

توفي فرويد عام 1939 تاركاً أعمالاً ضخمة لكنها مليئة بالأوجه الغامضة. ومنذ موته نشأت «مدارس» منشقة. وابتعد عنه فيرينكسي وأدلر ويونغ... واتسعت الحركة بعد ذلك حتى أيامنا، حيث يمكن أن نحصي اليوم حوالي عشرين «مدرسة» مختلفة في التحليل النفسي. غير أنه بين عامي 1930 و 1960، ظلت أفكار فرويد تنتشر في العالم الغربي كله إلى درجة يمكن معها التحدث بحق عن احتكار علمي للتحليل النفسي. وظهرت التوهجات الفرويدية الأخيرة مع الفيلسوفين الماركسيين التحريفيين. و .رايش وإ. ماركوز في الستينات من القرن الحالي...

ومع ذلك ظهرت اكتشافات هامة، منذ التوليف الحاسم لفرويد، في المجالات المختلفة لعلم النفس الحيواني والإنساني. وغيرت بعمق النظرة العلمية والنماذج الرجعية، وبالتالي علم النفس بأكمله.

ففي الثلاثينات من هذا القرن، ظهرت اكتشافات جديدة كثيرة في مجال علم النفس. وفي بادىء الأمر «خُنقت» هذه الاكتشافات بشهرة التحليل النفسي الذي كان سائداً. لكنها فرضت نفسها شيئاً فشيئاً، لا سيما بعد الحرب، لأن جميع هذه الاكتشافات كانت متقاربة فيما بينها، وانتهت بتكوين تيار رجعي رئيسي يعود إليه الباحثون أكثر فأكثر. ذلك الصعود القوي لهذا التيار الجديد هو ما سأحاول وصفه وتحليله في هذا الكتاب.

وحين نقوم بعرض عام لتطور أفكار علم النفس في النصف الأول من القرن العشرين، نرى بوضوح أن منطلق ما دُعي «الفردية» قد حددت معالمها بظهور مفهوم «العالم الخاص» في ميادين علم النفس (علم النفس الحيواني، والطفولي، والتعليمي والمرضي والاجتماعي...). كما في الخمسينات (أي بأكثر من نصف قرن بعد إرساء النماذج الفرويدية في علم الأعصاب وعلم الطاقة) توقف الإنسان عن كونه آلة رفع ميكانيكية بالنسبة إلى العديد من الباحثين. وساهمت جملة الاكتشافات التي سنتحدث عنها في نشر وتكامل هذا المفهوم للعالم الخاص من قبل الباحثين. وهذا المفهوم هو الذي يظهر لنا موحداً لمختلف الاتجاهات في علم النفس، بين عامي 1930 و 1950 ومنه انطلق علم النفس الجديد.

الفصل الأول

عوالم الإدراكات الحسية

I ـ العالم الحيواني ومساهمات علم أنماط السلوك

في بادىء الأمر أُدخل مفهوم «العالم» أو «الكون» عبر علم أنماط السلوك وعلم النفس الحيواني قبل أن يأخذ طريقه إلى الميادين الأخرى لعلم النفس. وعلم أنماط السلوك هو دراسة عادات الحيوانات.

وقد ظهرت أنماط السلوك الحديث مع أعمال ج. فون يوكسكول[1]. وأظهرت هذه الأعمال أن الحيوانات حسب أنواعها وحالاتها النفسية كانت تمتلك أشكالاً خاصة لإدراك بيئتها.

وفي مؤلف مشهور عن علم النفس الحيواني، صادر في عام 1909، رفض فون يوكسكول النظرية القديمة التي جعلت ردات الفعل الحيوانية ناتجة عن أسباب فيزيائية ـ كيميائية وفتحت الطريق لدراسة الأوساط الحياتية للكائنات الحية، واضعاً مفاهيم جديدة في قلب اهتماماته. وبكونه أول من درس الصلات بين الأجسام الحية وبيئتها، فقد برهن أن الحيوان لا يدرك، بواسطة أعضائه الحسية إلا جزءاً قليلاً من بيئته، وخاصة من «مواضيع حاملة للمعاني». وتحدد جملة إدراكاته الممكنة «عالمه الحسي الخاص المكوَّن من مثيرات خاصة يدركها»[2]. وهو عالم من القيم الحية للحيوان، تكون فيه جميع أفعاله وردات فعله ذات معنى كما يرتبط كل ذلك بعالم الأفعال الممكنة التي ترتبط ببنية الجهاز العصبي والوسائل العضوية للحيوان.

على هذه الأسس تطور علم أنماط السلوك الحديث، بين عامي 1930 و 1960، مع أعمال المدرسة الألمانية (ن. تيمبرغن[3]، وك. لورينتز[4]...)

(1) J. von Uexkull (1921), Monde des animaux et monde humain, Gonthier, 1956.
(2) I. Eibl-Eibesfeldt, Ethologie, biologie du comportement, Ed. Scientifiques, 1967, p. 2.
(3) N. Tinbergen (1953), La vie sociale des animaux, Payot, 1958.
(4) K. Lorentz (1965), Essais sur le comportement animal et humain Seuil, 1970.

ويؤكد أيبل ـ أيبيفيذث، تلميذ لورينتز أن علماء أنماط السلوك من هذه المدرسة «درسوا السلوك الحيواني في ذاته وفي علاقاته مع محيطه الحي وغير الحي، وفي إطار فكرة التحكم والتوجيه الآلي، وتفحصوا كيف تعمل الأجهزة المنظمة للسلوك والسياق الأجمالي». وفي عام 1935 أثبت لورينتز، مثلاً، أن العلاقات الاجتماعية بين أعضاء نوع معين كانت موجهة بإدراك المثيرات الخاصة الصادرة عن العناصر المتجانسة والقابلة للإدراك بصورة انتقائية[1]. فتتقابل المنبهات المطلقة مع آليات استقبال وتنشيط هيئة داخلية تطلق «ردة الفعل الخاصة المستعدة». وانطلاقاً من ذلك درس علماء أنماط السلوك «الأوضاع المنبهة». ومنذ عام 1939، برهنت دراسات تيمبرغن حول الإغراءات المحركة لأشكال السلوك الحيواني، أن بعض عناصر الوسط الخارجي تطلق بشكل آلي بعض التصرفات النموذجية (البقعة الحمراء لمنقار النورس تطلق ضربات منقار العصفور الصغير تعبيراً عن رغبته بالزُّقَّة)[2]. وتوضح تجارب أخرى وجود مغريات فوق عادية»، يعني مطلقات اصطناعية كانت قد أُعدت بحيث تُظهر مميزات المطلق (مثلاً: الخطوط الثلاثة السوداء على منقار زمَّج الماء ذات فعالية أكبر بالنسبة إلى صغاره من البقعة الحمراء، يعني أنها تثير ضربات المنقار أكثر). في هذا النموذج «يتوجه» الحيوان باستعداداته العصبية الوظيفية الداخلية التي تقدم له إمكانات إدراك بعض الأشياء، بينما يكون «مغلقاً» أمام إدراك مؤشرات أخرى موجودة في بيئته. ويكون العالم الذي يدركه بالتالي فريداً، ويمكن رسمه بشكل بياني بواسطة بعض العناصر الرئيسية.

أدت هذه الأعمال إذاً إلى فكرة أن عالم الحيوان هو عالم من «المثيرات المعبرة» يعني من المنبهات الإيحائية لمعنى الوضع بالنسبة إليه، وتطلق بالتالي سلوكاً معيناً.

II ـ عالم الأشكال وقوانين الإدراك في علم نفس الشكل

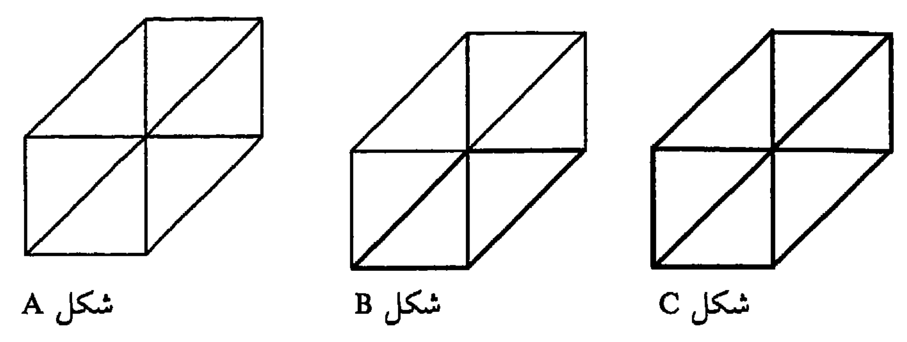
في العصر نفسه أوضحت تجارب علم نفس الشكل (التي كانت تتعلق بعلم نفس الحيوان كذلك) أن الدماغ البشري ذو أهلية خاصة لإدراك «الأشكال»، وأن الإدراك هو بشكل أساسي إدراك «الأشكال» ويجري تموضع العالم الخارجي في

(1) K. Lorentz, Der Kumpan in der Umwelt des Vogels, in Journ. Ornith, vol LXXXIII, 1935.
(2) N. Tinbergen (1935), L'étude de l'instinct, trad, franç., Payot, 1953.

«أشكال» تحت دلالات الاهتمامات والآمال والعادات الثقافية للأفراد[1].

وتُعرف التحليلات المرتبطة بمظاهر الإدراك التي أجراها كولر (1928) وكوفكا (1939) وغليوم (1932)، ففي الرسم أ، أدناه لا نلمح إثني عشر خطاً، بل متوازياً للسطوح، وصندوقاً يُرى من تحت (الرسم ب) أو يُرى من فوق (الرسم ج)، ويكون هذا الشكل (الذي هو «معنى» في الوقت ذاته» ثمرة عمل فكري يستخدم ليس فقط المعطيات الخارجية كما «تظهر»، بل كذلك جميع المسارات المعرفية العاملة في هذا الإدراك.

ولا يكون الشكل المدرك (والمعنى المتصل به بالتالي) عنصراً واحداً، بل بناء إجمالي. ويكون هذا البناء أهلية مميزة وبيولوجية للذهن، ويتكوَّن بمسار من



شكل A شكل B شكل C

العلاقات وابتكار لوحدة كلية وتجريد للعلاقات بين عناصر الوحدة. فما هو مدرك ليس هو عنصراً واحداً أو جملة غير متماسكة من العناصر، هو الشكل الإجمالي الذي تنتظم فيه هذه العناصر.

واستبقت تحليلات فلاسفة الشكل أفكار مدرسة پالو ألتو بثلاثين سنة. فقد حدد كولر شروط تكوّن المعاني، مشيراً إلى أن «مكاناً لا يمكن أن يظهر كـ «فجوة» إلا إلى الحد الذي يشكل فيه قطعاً في كيان أوسع (هذه العلاقة التي يقيمها الذهن هي التي تُظهر المعنى)... كما أن العلاقة الموسيقية تفتقر إلى الطابع النغمي إلا داخل مقطوعة موسيقية حيث تلعب دورها الخاص[2]...». هكذا، فيما يخص ما يحدث المعنى في الإدراك، لا توضع النبرة على العناصر بل على العلاقات فيما بينها.

(1) P. Guillaume, La psychologie de la forme, Flammarion, 1937.
(2) W. Köhler (1934), La psychologie de la forme, Gallimard, 1964.

من جهة أخرى، فإن الإدراك، بالنسبة إلى فلاسفة الغشتالت، لا يقدم لنا العالم الخارجي كـ «حقيقي» فقط، بل إننا ندرك هذا العالم المثقل بالقوى الإيجابية أو السلبية، الجاذبة أو الدافعة. ويرتبط كل إدراك لشبكة معقدة من خطوط القوة بنظام نفساني، وتكون هي ذاتها مرتبطة في آن معاً بالفاعل والأحداث ذات الأهمية بالنسبة إليه.

«تصور أنك تتدفأ بالشمس، في ساحة جميلة أو على الشاطىء، وكنت في حالة استرخاء تام واطمئنان مع العالم. لم تكن تقوم بشيء، ولم يكن محيطك إلا معطفاً جميلاً يلفك ويوفر لك الراحة والانفراد. وفجأة تسمع صوتاً: «النجدة! النجدة!». كم تشعر أن محيطك شيء آخر، وماذا جرى له. ولنصف الوضعين بعبارات ميدانية. ففي المرة الأولى كان ميدانك تحت جميع العلاقات المتجانسة، وكنت متعادلاً معه. ولم يكن هناك نشاط ولا توتر. في هذه الظروف يميل التمييز بين الأنا ومحيطها للاختفاء، وأكون جزءاً من المشهد والمشهد جزءاً من الأنا. وبالتالي حين تجتاز صرخة حادة الهدوء الصامت، يتغير كل شيء. بينما كانت جميع الاتجاهات متعادلة الدينامية سابقاً، يسيطر الآن اتجاه واحد، أنت مشدود نحوه. هذا الاتجاه صعب بالقوة، وتبدو البيئة منكمشة كما لو أن حُزَّة قد حُفرت على وجه مسطح، وأنت مرغم على اتباعها. وفي الوقت نفسه، يتأكد تمايز واضح بين الأنا والصوت المسموع، وتصدر عن الميدان كله درجة عليا من التوتر»[1].

هكذا، إن العالم الذي توجد الذات الفاعلة فيه قد أُعيد تنظيمه، لدى النداء المسموع. وظهر ميدان قوة يدفع إلى الفعل. وسنجد هذه الفكرة لـ «الميدان» النفساني حائزة على الفعل الموسع والموجه إلى نهايته من قبل ك. ليڤين الذي كان تلميذ كوهلر.

بالنسبة إلى منظِّري علم نفس الشكل يكمن ابتكار الحل لفعل مُعَيَّن في إعادة تنظيم حدسية لعناصر الوضع. يبين كوهلر (1928) وفي أبحاثه حول ذكاء القرود العليا، كيف تحل الحيوانات الذكية المشكلات حين يجعلها الاستبطان تعيد تنظيم

(1) K. Koffka (1924), Principles of Gestalt Psychology, New York, 1935, p. 43.

بنية الواقع الحقيقي. ويرى القرد، دفعة واحدة، في العصا المرمية أرضاً، امتداداً لذراعه للحصول على الشيء المعلق... بالنسبة إلى كوهلر، إن القرد، كالإنسان، يصدر بالبداهة وحدها نظاماً كاملاً من الوسائل والغايات[1]. ويحمل المفهوم الأساسي لـ «إعادة تنظيم» العالم في ذاته مفهوم «الاتجاه البنائي» الذي سيدرس فيما بعد.

III - حجج الطفل: مساهمة المنشأ الوراثي

حاول بياجيه، في أبحاثه منذ عام 1921، أن يستخلص أنظمة العمليات الذهنية القادرة على توليد النتائج القياسية المختلفة لدى الأولاد في مختلف الأعمار. فحدد معالم ثلاثة مستويات كبيرة لتنظيم السلوك لدى الولد: المرحلة الحسية ـ الحركية، والمرحلة ما قبل العقلانية، ومرحلة التفكير المنطقي. ولنذكُر سريعاً ببعض العناصر الوصفية لما قبل مرحلة التفكير المنطقي، لتعزيز حديثنا المتعلق باكتشاف «عالم الطفولة» في الثلاثينات[2].

وتشكل مفاهيم الحفظ المسائل الأكثر شهرة في حجج بياجيه. فهو يرى أن الطفل في الشهر الخامس أو السادس يبدأ بإدراك الأشياء التي يراها، لكنه لم يمتلك بعد مفهوم استمرارها. وإذا وضعنا قطعة قماش على وجهه، فإنه يعرف نزعها، أما إذا استخدم القماش بحضوره لإخفاء شيء ما، فإن هذا الشيء يزول بالنسبة إليه. ذلك أن عالمه الخارجي يتكوَّن بتوالي لوحات متحركة ومرتبطة بمجالات متنافرة بعضها مع بعض: فمية، ولمسية وبصرية، وسمعية، وكلها ترتكز على الجسم الخاص، لكن دون تنسيق. ولم يكتسب بعد مفهوم استمرار الشيء. ويحتاج إلى ثمانية عشر شهراً لكي يجري بناء مجال عام يشمل المجالات الأولى الخاصة، إلى جانب الأشياء الجامدة والدائمة، وحيث يصبح جسمه الخاص شيئاً من الأمور الأخرى، وتشهد هذه المرحلة التي تسبق الكلام شكلاً من الذكاء يسميه بياجيه الحسي ـ الحركي. ولا تفكير فيها بعد. وإذا وضع أمام كُرَتين من العجين ودُعي إلى تحويل إحداهما إلى مقانق أو فطيرة، فإنه يعتبر أن في الكرة المحوَّلة عجيناً أكثر مما في الأصل. ولا يصبح قادراً على فهم أن الكمية هي ذاتها الكرة ولم نأخذ منها شيئاً.

(1) W. Köhler (1934), La psychologie de la forme, Gallimard, 1964, p.175.
(2) J. Piaget, La construction du réel chez l'enfant, 1937.

لكنه يستمر في اعتبار أن هذه الكرة قد كبرت في المقانق أو في الفطيرة، وأصبحت أثقل، وفي نحو العاشرة من العمر فقط يكتسب مفهوم حفظ الوزن.

لدى پياجيه، تتحول النشاطات المعرفية للولد بقدر ما يتكون التفكير عنده. ويكون الفعل مصدر تطور المدارك والبنى العملية. فيتعمم كل عمل أو عملية بالتكرار ويتجسد بأشياء جديدة (مماثلة)، وفي الوقت نفسه تتقولب تبعاً لخصائصها. وتتوافق الأعمال والعمليات بالتعميم وتؤلف «جديداً حقيقياً»، يعني أشياء جديدة للفكر والعمل (ذلك هو مسار التوازن). وتتولد كل مرحلة إعادة بناء للفكر والعمل بالفعل ذاته، لأن هذا الفعل يحوّل الواقع. وتصبح كل بنية ممكنة بالنتائج السابقة، ويؤدي التفاعل بين الذات الفاعلة والموضوع إلى ظهور عناصر «ملحوظة» في الموضوع ذاته أو في العمل اللاحق بالموضوع. وبالتالي يكون علم المنشأ لدى پياجيه بناء. ويتموضع أصل المعرفة، بالنسبة إليه، في النشاط العملي والمعرفي للفاعل وليس في العالم الخارجي وحده، أو في الإدراك الحسي.

IV ـ الإدراك المتكيف للعالم وعلم النفس الظواهري

حين أدخل علم نفس الشكل مفهوم الميدان الكلي، ظهرت فكرة كون العالم يتكون على أساس الاعتبار للذات الفاعلة التي تدركه. وذهب علم النفس الظواهري إلى أبعد من ذلك، مستعيداً أفكار ف .برينتانو الفلسفية (1874) ثم أفكار إ .هوسيرل (1913) في تعميق فكرة الوعي التعمدي للوجود في العالم.

وأفكار برينتانو الفلسفية هي في أساس الصيغة المعروفة جيداً والتي اعتمدها فلاسفة الظواهرية «الوعي هو دائماً وعي لشيء ما».

«كل ظاهرة نفسانية تحتوي في ذاتها شيئاً معيناً بصفة موضوع، لكن كل واحد يحتويها على طريقته. ففي التصور يجري تصدر شيء معين، وفي الحكم يُقبل كل شيء أو يرفض، وفي الحب يحب شيء، أو في الكره يكره شيء، وفي الرغبة يرغب في شيء، وهلم جراً. . . هذا الحضور التعمدي يخص الظاهرات النفسانية بشكل حصري. ولا تظهر أية ظاهرة فيزيائية شيئاً مماثلاً. فيمكننا بالتالي تحديد

الظواهر النفسية بالقول إنها الظواهر المحتوية على موضوع معتمد فيها»[1].

يقول سارتر «إن ظهور مؤلّف هوسيرل أفكار: Ideen كان أكبر حدث في الفلسفة في فتره ما قبل الحرب العالمية الأولى. . وبقدر ما هز الفلسفة كان هذا المؤلف مدعواً لهز علم النفس»[2]. وكما كان يعتبر سارتر، فإن روح الفلسفة الظواهرية (معرفة الوقائع في حقائقها الملموسة الممكنة وليس في أسبابها وقوانينها) انتشرت اعتباراً من عام 1930، وساهمت في نقد علوم النفس التي كانت تعتقد أن المعرفة النفسانية، إنما تكمن في معرفة الأسباب. من هنا ومنذ الثلاثينات، دخل الشك على وجاهة التفسير التحليلي النفساني (الذي هو تفسير سببي)، في علم النفس.

ووجه علم النفس الظواهري، بمفهومه الخاص للوعي، ضربة قاضية إلى مفهوم الحياة النفسانية التي نادى بها المحللون النفسانيون. و «ليس هناك إنسان داخلي، فالإنسان في العالم، وفيه يُعرف» قال ميرلو بونتي[3]. وبالتالي فالوعي لا محتوى له. ولا يمكن إدراك الوعي كمحل للحالات النفسية: في الإحساسات، ومشاعر القلق، والرغبات. . . ويكون الوعي هو الفعل الذي يُعطى به لنا الحاضر والماضي، أو الفعل الذي نتوجه به نحوهما. وبالنسبة إلى علم النفس الظواهري، فلا وجود إلا لأفراد لهم علاقات مختلفة مع محيطهم.

«بكلمة واحدة، للمشاعر مقاصد خاصة، تتمثل شكلاً ـ بين أشكال أخرى ـ من التسامي. فالكره كره لشخص، والحب حب لشخص. ويقول جيمس: إنزع المظاهر النفسانية للكره والغضب، فلا يبقى لك إلا أحكام مجردة، وحاول أن تحقق في ذاتك الظواهر الذاتية للكره والغضب دون أن تكون هذه الظواهر موجهة نحو شخص مكروه، أو نحو شخص جائر، ويمكن أن ترتجف وأن تضرب بقبضة يدك، وأن يحمرّ وجهك، وتكون حالتك الداخلية كل شيء عدا الغضب والكره. أن تكره پول يعني أن تتوجه إليه كموضوع متجاوز للكره، لكنه ينبغي ألا نرتكب الخطأ العقلي

(1) F. Brentano (1874), Psychologie du point de vue empirique trad. franç., Aubier, 1944, p.102.
(2) J.- P. Sartre, L'imagination, PUF, 1936, p. 139.
(3) M. Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, PUF, Gallimard, 1945, p. V.

ونعتقد أن پول موجود كموضوع لتصور عقلي. فالشعور يستهدف موضوعاً، لكنه يستهدفه على طريقته الانفعالية»[1].

وفعل الوعي هو الذي يوصلنا إلى وجود عناصر «حقيقية» من العالم الذي يحيط بنا. و «الإنسان هو الوسيلة التي تظهر بها الأمور؛ ووجودنا في العالم هو الذي يضاعف الصلات، ونحن الذين نقيم العلاقة بين هذه الشجرة، وهذه الزاوية من السماء»[2]. . كذلك ينبغي أن نسجل أن كيان الأشياء يتغير تبعاً للاهتمام الذي نكنه له، وتبعاً لخططنا بالنسبة إليها. فيكفي تغيير في موقعنا المتعمد لكي لا ندرك بعض الأمور، ولكي تبرز أخرى، في حين تكون كلها «موجودة» في الوضع. ويقول سارتر، لنفترض أنني أبحث عن صديقي پيار في مقهى يتردد إليه.

«حين أدخل المقهى للبحث عن پيار، يجري تنظيم تركيبي لجميع أشياء المقهى التي من المسلم وجوب وجوده أمامها. ويكون هذا التنظيم للمقهى في العمق هو العدمية الأولى. وكلّ عنصر في المكان من الشخص والطاولة والكرسي يحاول أن ينعزل عن الكل المكوَّن من مجموع الأشياء الأخرى ويقع في هذا الكل، ويذوب فيه. والعمق في هذا الكل لا يرى إلا بشكل إضافي، ما هو موضوع انتباه هامشي صرف. هكذا إن العدمية الأولى لجميع الأشكال التي تظهر وتغرق في اللامبالاة الكلية بالعمق، هي الشرط لظهور الشكل الرئيسي الذي هو هنا شخص پيار. وتظهر هذه العدمية بداهة، فأكون شاهداً على الزوال المتوالي لجميع الأشياء التي أراها، وخاصة للوحدة التي تشدني إلى الخطة («إذا كان هذا هو پيار؟») وتتحلل بعد ذلك، لأنها بالدقة «ليست هي وجه پيار».

هكذا يتغير ما أدركه تبعاً لما أبحث عنه في المقهى. والعالم هو عالم بالنسبة إليّ، يتكون حسب مقاصدي الأساسية ويتغير معها.

إننا نرى مع هذا النمط الجديد للإنسان الذي طرحته الوجودية، كيف ترتدي هذه الوجودية مسؤولية بناء العالم الذي ندركه «بصورة متعمدة».

---

(1) J-P. Sartre, L'imagination, PUF, 1936, p. 93.
(2) J-P. Sartre, Qu'est-ce que la littérature?, II, Les Temps modernes, févrrer 1947, p 788.

الفصل الثاني

العوالم الانفعالية

I - عوالم الطفولة ومساهمة علم نفس الطفل

في الثلاثينات من هذا القرن، كان علماء نفس الطفولة يبذلون الجهد لتوضيح ما كانوا يسمونه «ذهنية الطفولة»، وكانوا يقدمون الأدلة على أن هذه الذهنية تجتاز مراحل بارزة. لنأخذ مثالاً أشكال الوصف التي أعطوها حينذاك لذهنية الطفل بين السنتين والست سنوات من العمر. ففي هذا العمر، يكون عالم الطفل «حياتياً»، و «ذاتي المركز»، و «إجمالي الإدراك».

الحياتية الطفولية هي الميل إلى إدراك الأشياء كأنها حية ولها مقاصد. فكل شيء يقوم بنشاط، من المصباح الذي يشتعل، إلى الفرن الذي يدفىء، إلى القمر الذي يضيء. إن الولد يضفي على الأشياء مقصداً معيناً لإكمال أفعالها وللتحرك والتوجه. هكذا فالغيرم تعلم أنها تتقدم، لأنها تحمل المطر. والقمر يتبعنا في نزهاتنا ويعود إلى الوراء عندما نعود أدراجنا.

واعتبر كلاپاريد الإجمالية الإدراكية للفكرة الطفولية شكلاً من التفكير، ذي فهم إجمالي لعالم الحياة[1]. فبين سنتين وست سنوات، يستعمل الولد بسرعة «كلمات جمل» تبين أن عالم إدراكه هو إجمالي، غير متميز وغير تحليلي. غير أنه يقابل هذا النوع من التفكير سلوك مقلد يرسم به الولد سلوك الراشدين بتبسيطه، كما لو أنه

(1) E. Claparède, Psychologie de l'enfant et psychologie expérimentale, Genève, Kündig, 1916.

يتظاهر به. ودعا ديكرولي هذا الشكل من التفكير والحكم والفعل بـ «الاتجاه الإجمالي». ويرهن كيف أن الولد لا يدرك التعابير المميزة في الأحكام والمقارنات التي يصوغها[1]. ويدرك التماثل في حد ذاته، بصورة سابقة على التعابير المماثلة. ويعبر الولد عما يشعر به بصورة إجمالية كشأن مشترك بين عدة تجارب. وتكون ردات فعله انفعالية دائماً وعميقة. ولا وجود أبداً لإجابات «باردة» أو معقلنة بصفاء. ويكون الولد لا مبالياً أو غير منتبه، أو «متحركاً» بكلّيته. بما يدركه أو بما يحصل له. ولا وجود للتفكير ولا للبعد، ولا للنسبية في الأمور[2].

في هذه المرحلة بين السنتين والست سنوات من العمر يكون تفكير الطفل تحويلاً وراثياً[3]. ويحوّل على الأشياء ما يحس به هو ذاته، بطريقة سحرية. فحين يقول رداً على سؤال من پياجيه «التمثال بارد»، وفي الإلحاح يضيف «لأنه عار»، إنه يفكر بطريقة «التحويل الوراثي» من داخل «عالمه السحري». ويلتصق تفكيره بالأوضاع العاطفية أو العملية التي يجري في إطارها. ويكون غير قادر على التجرد الذي يخلق الموضوعية في التفكير والحكم. في هذا العالم السحري للطفل في عمر السنتين، لا وجود لشيء إلا بالنسبة إليه ومثله، ويكون له مقصد وشعور.

في عام 1936، وصف م . ديبيس أشكال السلوك الخاصة بمرحلة المراهقة المبكرة، وابتكر مفهوم «أزمة الابتكار الشبابي» المستعمل منذ ذاك الوقت للدلالة على هذه المرحلة من المراهقة لتصبح أكثر فأكثر نوعاً من التمرد ضد الوسط والمجتمع[4]. في هذا العمر، يفقد المراهقون المبكرون الاتصال بالعالم الخارجي والآخرين، ويبدأون العيش في عالم آخر يخصهم، عالم من الصور والذكريات والأفكار الغريبة والمبادرات غير المنتظرة، ويلاحظ أنهم يكونون مضطربين تارة بلا مبرر، ولا مبالين أمام الأحداث الصعبة تارة، ويحصل أن يروا مشهداً من الحياة اليومية كما لو أنه مشهد سينمائي أو إيمائي. كما يوجد تنافر بين ما يشعرون به وما يقولون، بين محتوى ونبرة كلامهم: فيتحدثون بخطورة عن أشياء خطيرة، وينفرون

---

(1) O. Decroly, Quelques notions générales sur l'évolution affective chez l'enfant, Bruxelles, Lamertin, 1927.
(2) P. R. Bize, L'évolution psychophysiologique de l'enfant, PUF, 1950.
(3) H. Wallon, Les origines du caractère chez l'enfant, Boivin, Paris, 1934.
(4) M. Debesse, La crise d'originalité juvénile, Alcan, 1936.

فجأة من بعض الأمور والنشاطات والشخصيات، ويعشقون بسرعة، وتأخذ هذه الأشكال من النفور والانجذاب طابعاً لجوجاً ومعذباً، ويستخدمون ذكاءهم لحل المعاني المألوفة للأمور اليومية التي يخافون منها. ويناقشون فيما بينهم اختباراً لأفكارهم الفلسفية المتشائمة. ويظنون أن الآخرين، وخاصة الراشدين، تستحوذ عليهم الأحكام المسبقة السخيفة. من هنا المبادرات المختلفة وأشكال الرفض «النهائي» للاتصال بالآخرين، وأشكال الاستياء العدائية ضد الأشخاص في محيطهم الذين يعتبرونهم غير مدركين، وفي الوقت ذاته، البحث القلق عن الذين يستطيعون تحريرهم من أحكامهم الخاصة. ويناقشون وضع العائلة مثل المجتمع الذي يكون لديهم صورة خيالية عنه، ويرونه كوسط للإفساد والعنف والكبت ويطرحون أنفسهم كمصارعين معادين للمجتمع.

في نحو الثلاثينات إذاً، بدأ علم نفس الطفل ينشد نتائج ملاحظاته واختباراته. وساهمت هذه النتائج بالترويج بشدة لمفهوم العوالم الخاصة بالطفولة.

II ـ العالم الفردي الخاص وابتكار التقنيات الإسقاطية

كذلك ساهمت أبحاث علماء النفس السريريين حول «الطرق الإسقاطية» في البرهان على وجود عالم خاص، كنوع من البنية الفاعلة بين الأمور النفسانية التي تتدخل في أشكال إدراك يمكن للذات الفاعلة أن تأخذها عن محيطها.

فقد رأينا أن الإسقاط في التحليل النفساني هو آلية بين الأمور النفسانية يعزو بها الفرد إلى الآخرين مشاعر غير مقبولة في نظره، في حين أنه هو ذاته الذي يختبر هذه المشاعر بطريقة غير واعية. غير أن للإسقاط مفهوماً آخر أدخله ل .ك .فرانك مبتكر «الطرق الإسقاطية». وكان يونغ C. G. Jung قد برهن كيف ينبني اللاوعي ويتدخل في تكوين أشكال الإدراك والتعابير البشرية. غير أن آثار هذه التدخلات للاوعي في النتائج التخيلية للإنسان قد وجدت في الخرافات والروايات والأساطير في كل الأزمان، وتُظهر في محتوياتها المختلفة وجود نماذج مثالية ثابتة[1]. وأدت أعمال فرانك إلى تجاوز فكرة تدخل اللاوعي وحده للوصول إلى مفهوم تدخل «العالم

(1) C. G. Jung (1932), Métamorphoses et symboles de la libido, Ed. Montaigne, 1932.

الخاص» للفرد. ويكون «الإسقاط» التعبير من هذا «العالم الحميم». وأظهر، في عام 1939، وجود «عالم خاص» في كل ذات فاعلة بشرية، مكوَّن من اعتقاداته الخاصة. كما برهن على أن هذا العالم الخاص يوجه بنشاط أشكال الإدراك والسلوك[1]. وقد وصفه بأنه تشكل خاص مكوَّن من «ردات فعلنا المزمنة»، وبينها علاقات بنيوية، مما يعطي لهذا الشكل نمطه العملي وتأثيراته الفريدة. وقد عرض فرانك مفهوماً للشخصية فقال: «الشخصية هي مسار دينامي، إنها نشاط متواصل للفرد المتورط في الخلق والاستمرار والدفاع عن العالم الخاص الذي يعيش فيه»[2]. ويمكن محاولة اكتشاف هذا «المسار الدينامي للشخصية» بتحليل «منجزاتها». فيحدد مفهوم «طريقة الإسقاط» لتبيان القرابة بين اختبار جمع الكلمات ليونغ (1940) وروورشاخ (1921) Rorchach وموراي Murray (1925). ويقول: «التقنية الإسقاطية، في جوهرها، منهج دراسة الشخصية التي تجابه الفرد بوضع يستجيب له هذا الفرد بحسب ما يعنيه هذا الوضع له، وتبعاً لما يشعر به خلال هذه الإجابة. وبالتالي يمكن استخدام كل شيء كتقنية إسقاطية بما فيها اختبارات الذكاء، شرط أن ينظر الباحث في أية وسيلة تعبير يجيب بها الفرد على الاختبار، بدل استخدام المعايير العادية لقياس المقارنة. . . ويكون الطابع الأساسي لتقنية إسقاطية أنها تطرح لدى الفرد وبطرق مختلفة ما هو تعبير عن عالمه الشخصي ومسارات شخصيته».

يشارك في هذا المفهوم للإسقاط بيلاك الذي كان قد قام بتجاربه اعتباراً من تجارب موراي Murray. وبعد أن جمع بيلاك «الحكاية المتخيلة» من قبل الأشخاص، وضعها في حالة تنويم مغنطيسي وأعطاها نظاماً عدائياً، ثم فيما بعد، نظام الإحساس بأنه مضطهد وتعيس. في هذه الحالات كان يجمع رواياتهم المتخيلة على لوحات الاختبار. ففي الحالة الأولى، كانت تسجل زيادة كبيرة للمواضيع العدائية في الروايات، وفي الحالة الثانية، زيادة كبيرة للموضوعات الكئيبة. هكذا إن بيلاك قد برهن على أن الإسقاط هو تدخل للنصوص الذهنية الأولى للفاعل في الابتكارات المعبرة عن تصوره. والإسقاط، بالنسبة إلى بيلاك وفرانك، يقيم بنية نفسانية لـ «عالم داخلي» شخصي.

(1) L. K. Franck, Projectives Methods, Oxford, Buckwell Scientific Publ., 1948.
(2) L.K. Franck, op. cit., p.16 وكان فرانك بنائيا قبل الرسالة لأن الشخصية بالنسبة إليه تخلق عالمها الخاص

III ـ ميدان الحياة

مساهمة علم النفس الدينامي

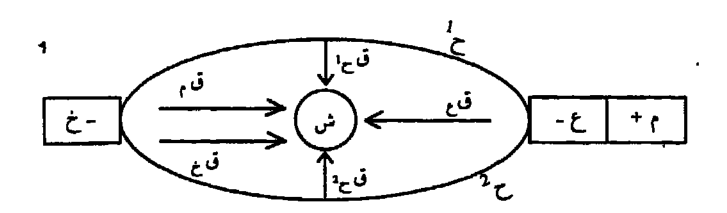
ميدان الحياة «هو في آن معاً، العالم الذي أكون فيه والعالم الذي أكوّنه، ما أتحمله وما أعكسه، وفي هذا الكل الذي أكون معه، يكون التضامن أكثر من مجرد تبادل، ولا يمكنه أن يتحلل إلى سببية متعاكسة الاتجاه، لأن المحيط لا يؤثر عليَّ إلا بقدر ما هو محيطي، رغم أنه كذلك محيط خارجي وغريب. . . ويكون الفرد فيه كأنه نتاج للمحيط مع محيط هو فعل نتاج للفرد»[1]. ومع مفهوم ميدان الحياة، الذي صيغ في الثلاثينات وانتشر في الخمسينات، برهن لوين أن الفرد متداخل في نظام ترتبط فيه جميع أشكال السلوك بالبيئة التي تظهر فيها، وأنه يتصرف في عالم من القيم المنسوبة إلى العناصر الأساسية لهذه البيئة[2].

لنأخذ المثال الشهير للمخالفة[3]. نفترض أن شخصاً ش، تعرض عليه سلطة معينة، عملاً ع، هو بالنسبه له محمل سلبي (يعني غير محبب ومنفر ينبغي تجنبه). وظهر العمل في تكافؤ سلبي، وفي الوقت نفسه ظهرت قوة نفسانية ق تدفع الشخص المعني للهروب من أداء هذا العمل. لكن السلطة التي تعرض العمل تسهر عليه. وتخصص له مكافأة م يفترض أنها محمل إيجابي بعد القيام بالعمل، وهي محمل خطر خ سلبي في حال عدم القيام به. هكذا يكون الشخص في وضع سيحاول بالضرورة «الهروب» الجانبي منه، لتجنب الخطر والعمل، أو حتى يحاول الحصول على الارتياح بتجنب ع وخ إذا كانت ظروف الوضع ملائمة. ويتعرض الشخص ش إلى توتر داخلي، تُرجم وتجسد بتعارض السهام في الرسم البياني للخصائص الممثلة لميدان الحياة. وتسد السلطة الخارجية الإكراهية المخارج الجانبية لإمكانية الهروب أو الالتفاف نحو المكافأة بطرح ما يسميه لوين «الحواجز» ح. وتكون هذه الحواجز إما مادية (باحتجاز الشخص مثلاً) وإما مادية ـ معنوية (وجود السلطة المراقبة) وإما أخلاقية (تجنب الوضع «المتعارض مع الشرف» أو «القيام بما يسبب التعب لمن

---

(1) M. Dufrenne, La personnalité de base, PUF, 1966, p 41.
(2) K. Lewin (1936- 1948), Psychologie dynamique, PUF, 1967.
(3) K. Lewin, A dynamic Theory of Personality, McGraw Hill, 1935, p. 160, trad, franç. in K. Lewin. Une théorie du champ dans les sciences de l'homme, P. Kaufmann, Vrin, 1968, p 348.

تحب» أو كذلك «ارتكاب خطيئة معينة») وإما اجتماعية أخيراً (تجنب الوضع يعني «الخروج من الجماعة» و «الاختلاف عن الآخرين»، و «تعريض المستقبل الاجتماعي للخطر»)، حينذاك يأخذ ميدان الحياة الشكل التالي:



ويصبح الوضع حينذاك مقفلاً بصورة كلية. ويأتي السلوك معبراً عن نتيجة تلاقي جميع العوامل، وفي الوقت نفسه، يشكل الحل للتوتر المتحقق بالتعارض فيما بينها. ويؤدي التوتر إلى جعل الوضع غير قابل ليعاش طويلاً، وينفلت الفعل للخروج منه.

لقد أوجد حجم وشكل الفعل لدى ك. لوين الحجر الأساسي لفكرة نظام العالم الشخصي. وسمح الرسم البياني له بتصوير ما يمكن أن يكون عليه الوضع بصفته نظاماً لمجموعة قوى «محركة» مستقلة ومرتبطة بدلالات يوفرها الفاعل ذاته (الرسم البياني أعلاه حيث يرى أن كل تدخل على «تكافؤ معين» يعدّل جملة الوضع ويوفر إمكانية مخرج معين).

IV ـ عالم المريض المعاش ومساهمة علم النفس المرضي الوجودي

إن تأثير عالم وصف الظواهر على علم النفس كبير. فحسب الدكتور أ. هيسنار الرئيس السابق للجمعية الفرنسية للتحليل النفساني، مع المدرسة الظواهرية «لأول مرة في تاريخ الثقافة، تؤكد حركة فلسفية في متناول الطبيب النفساني، أن الوعي تعمدي، وفي الوقت نفسه مصدر للدلالة والقيمة. وأن كل كائن بشري لا يفكر ولا يوجد في المحيط البشري بل بواسطته»[1].

(1) A. Hesnard, Apport de la phénoménologie à la psychiatrie contemporaine, Rapport au Congrès de psychiatrie et de neurologie de langue françaïse, LVII^{e}, session, Tours, 8-13 Juin 1959, Masson.

ويهتم علم النفس المرضي الظواهري الذي حدد ياسبرز (1883 - 1969) معالمه ما يعيشه المريض، وهو إدراكي ووصفي بالدرجة الأولى أو تستلزم طريقته تماثلاً مع ما يعيشه المريض ووضع المواقف التقليدية المستهدفة تصنيف الأعراض بالنسبة إلى ماهيات تصنيف الأمراض المحددة مسبقاً.

«. . . العلاقة القصوى للطبيب مع مريضه هي علاقة وجودية تتجاوز كل معالجة، يعني كل ما يمكن أن يكون منظماً أو مخرجاً بصورة منهجية. وتجري المعالجة حينذاك وتنحصر في جماعة كائنات حرة وعاقلة، على صعيد الوجود الممكن»[1].

وتكون التجربة الذاتية للمريض في مركز اهتمام المعالج الذي يبذل الجهد لاستعادة تكوينها بوعيه، في علاقة ودية مسهلة لذلك. وكان ياسبرز، في مجال الطب النفساني أحد الأوائل الذين أخذوا في الاعتبار الهذيان كتجربة أولية متصلبة، أي كشكل من الوجود في العالم وإدراكه وتحديد دلالته. وكان عليه في مؤلف لاحق فتح الطريق إلى الاتجاه الوجودي» بوصف حالات «حدس الناس» كمواقف وجودية في وجه الكون. في هذا الاتجاه تعتبر أعمال إ .مينكوفسكي الذي تأثر ببرغسون وأظهر اهتمامه بحالات الذهان والاكتئاب واكتشف أن الاضطراب الأساسي بهذا النمط من المرض هو اضطراب في إدراك الزمن[2]. فعندهما لا يفهم الزمن على أنه دوام موجه نحو المستقبل، ويتيح بالتالي تحقيق ابتكارات جديدة. ويضاف اتجاه تفاضلي للزمن نحو الماضي. وبالنسبة إلى مينكوفسكي إن كل المُعاش من الذُهان والاكتئاب ناتج عن هذا الاختلال في بنيته العميقة لفهم العالم. وبالنسبة إلى عالم نفس مرضي وجودي آخر بنسڤنغر (1947) فإن وحدة الإنسان ـ العالم هي أساسية، ووعي الذات هو البديهة لوعي العالم[3]. وحضور العالم يتحقق بتشكيل عالم ومدرك بالعقل، وملموس وتاريخي دائماً، وخاص بكل نمط من الأفراد. وبالنتيجة إن المرض أقل أهمية من الفرد في وضعه المرضي. ويعتبر أن على الطبيب السريري أن يبذل الجهد ليدرك بصورة ملموسة حالة وجود مريضه، بصفته تجربة مُعاشة و «مشروعاً» مندمجاً في تاريخ. ويكون هدف العلاج حينذاك أن يعيش المريض

---

(1) K. Jaspers (1923) , De la psychothérapie, PUF, 1956, p. 1.
(2) E. Minkowski (1933), Le temps vécu, Delachaux & Niestlé, 1968.
(3) L. Binswanger (1947), Rêves et existence, Desclée de Brouwer, 1953.

مجدداً بالاتصال مع الطبيب النفساني المعالج، المراحل المتتالية لهذه التجربة الحية: حيث يعاد «تفسير» الكائن في العالم الذي يجري. وينبغي أن توفق هذه الإعادة للتفسير بين المريض وجسمه بنوع من التجاوز.

وحسب علم النفس المرضي الوجودي، يعيش كل مريض عالماً فريداً، وتتكون في وعيه دلالات ليست أقل فردية. وتكون هذه الدلالات منظمة في العالم، وتظهر للمريض على أنها وحدها الواقع الموضوعي.

الفصل الثالث

العوالم الثقافية

إن هذا الدخول المفاجىء للاتجاه الفردي للعوالم الخاصة في علم النفس لم يطرح أية مشكلة، أمام ضرورة وجود عالم مشترك، يضمن التفاهم بين الناس لأن أعمال علماء النفس الاجتماعيين وعلم الإنسان ضمنت الاتصال بين العالم الثقافي والعالم الخاص.

I ـ «المشاعر الاجتماعية»:

إسهامات علم النفس الاجتماعي في الثلاثينات

تعود الأعمال الأولى لعلم النفس الاجتماعي في الإدراك إلى أعمال الباحث مسافر شريف في عام 1936. وهو من أصل تركي درس في هارڤارد[1]. وكان مقتنعاً، من خلال تجربته اليومية، بوجود أسلوب تركي في فهم أمور الحياة، يختلف كثيراً عن الأسلوب الأميركي. وقد ساورته فكرة إخضاع بديهياته إلى جملة من الملاحظات الاختبارية، واتضح له وجود شكل ثقافي لإدراك الأمور، وأنه لا بد من تدريب خاص للوصول إلى إدراكه كمجموعة أخرى غير المجموعة التي جرى التكيف معها.

هذه التجارب أطلقت مئات الأعمال الاختبارية التي أصبحت مشهورة منذ ذاك الوقت، والتي أشاعت فكرة كون كل إدراك كان يندمج مع عناصر علم النفس

(1) M. Shérif (1936), The psychology of social norms, New York, Harper and Brothers, 1936.

الاجتماعي كاشفاً المعايير الاجتماعية للجماعة. فقد برهن برونر وغودمين مثلاً، أن إدراك «الحجم» كان يتغير تبعاً للوسط الاجتماعي للأفراد: حيث يعطى أولاد الفقراء لقطعة واحدة من النقود بعداً أكبر مما يعطيها أبناء المجتمع الأكثر يسراً. وكان برونر وپوستمن يبرهنان على أن الأفراد أمام مشاهد متشابهة ملتقطة من الشوارع، يعطون «رؤىً» تفسيرية مرتبطة بصورة كلية بالجماعة ذات الانتماء الاجتماعي الواحد.

II ـ الشخصية الأساسية

لقد أظهرت مدرسة الاتجاه الثقافي، بينيديكت (1887 - 1948) ور. لنتون (1898 - 1953)، وم. ميد (1901 - 1978) أن مجموعة من الظروف الثقافية المتطابقة أو المتشابهة إلى حد كاف تخلق لدى جميع أفراد المجتمع «شكلاً واحداً لرؤية الأمور والتصرف» في بعض «الأوضاع النموذجية». وكان هذا النوع من الشخصية الثقافية المشتركة بين الأفراد الذين تزودوا بالثقافة ذاتها بشكل كافٍ، كان قد سُمّي بـ «الشخصية الأساسية». فهي بشكل معين مجموع هذه الاعتقادات المشتركة التي جعلت جميع سكان المانش يتصرفون ويفكرون على طريقة خاصة بهم، وجميع الفرنسيين كفرنسيين. ويقول كاردنير (1945) إن الشخصية الأساسية هي «هيئة علمية نفسية خاصة بأفراد مجتمع معين، وتظهر في نمط معين من العيش، يستند إليه الأفراد في زخرفة حياتهم الفردية. وتشكل هذه الهيئة الرحم الذي تتطور فيه السمات الفردية».

III ـ الإدراك المعياري للأوضاع اللغوية

يقول هول Hull «ما يختاره الإنسان لإدراكه، عن وعي أو لا وعي، هو ما يعطي دلالة وبنية لعالمه»[1]. كما يتدخل الوضع، حسب هول، لتحديد ما هو مدرك وما هو مجهول. وبالنسبة إليه، يوجد في كل ثقافة عدد معين من «الأوضاع النموذجية» المدركة بشكل متميز من قبل أفراد الثقافة. وهي تشتمل على أدوار محددة، وبالتالي على «خطط لمجرى الأعمال»، وهي محددة بشكل واسع بأدوار ثقافية وجماعية. وهو يقول «في كل مكان من العالم، تهيمن مئات التعابير التي

(1) E. T. Hall (1976), Au-delà de la culture, Seuil, 1979, p. 90.

ندعوها «تعابير لغوية معيارية»، وتستخدم في مناسبات خاصة «فإن طلب وجبة طعام في مطعم يذكر بصعوبة معينة في إحدى اللهجات». كما تستخدم اللهجات المعيارية بشكل صحيح، ولها نص غني بصورة نسبية، في ما يسهل ويختصر الأمور. . . ففي لغة يكثف كل شيء: القواعد والمفردات والنبرة. . .»[1]. وتكون الأوضاع اللغوية المعيارية بالتالي هيئات من العناصر المادية والبشرية يمكن الاعتراف بها مصنفة كأشكال نموذجية للمحيط من قبل هيئة ثقافية واسعة إلى حد معين. وتكون هذه «الأشكال» رسوماً بيانية تحفظ هيئة معينة من العناصر ذات المغزى. هذه الأوضاع هي «مألوفة» يشعر معها الأفراد بالارتياح، مما يسهل التبادلات.

وينبغي أن نرى أن هذا الشكل من إدراك المحيط يقلب الموقف التقليدي لعلم النفس حيث يرتبط السلوك بالفرد وحده بشكل أساسي.

تحت التأثير المزدوج لاكتشافات علم الأخلاق وعلم نفس الإدراك وعلم نفس الطفل وعلم النفس الظواهري والوجودي دخل مفهوم «العالم» في العلوم الإنسانية. وصار يُحكى عن «عالم الفُصام» و «عالم المراهقين» و «عالم الطفولة السحري» و «عالم الانعزاليين» إلخ. . . كما أن الذهنيات الثقافية توصف كأنها «مفاهيم العالم» حسب تعبير ديلتي، مما يشمل جملة الدلالات المعاشة المكوِّنة لعالم الجماعة المعنية، يعني في آن معاً الواقع الذي نعيشه (ما يدعونه موضوعية العالم الخارجي) ونمط الوعي الذي يكوِّن هذا العالم، ويشكل الوجهان شيئاً واحداً، بسبب علاقتهما الأساسية.

---

(1) E. T. Hall (1976), op, cit 1979, p. 131.

الفصل الرابع

بناء العالم اليومي

لقد أظهرت الإسهامات المختلفة التي رأيناها العلاقة النسبية بين العوالم الثقافية والفردية. فكل مجموعة ثقافية ثم كل فرد يدرك ويحس ويحلل على طريقته العالم الذي يعيش فيه. والأطفال حسب أعمارهم، والراشدون حسب مقاصدهم أو ثقافة انتمائهم، لهم عوالم خاصة. فينبغي أن يُرى جيداً أن هذه المفاهيم فتحت ثغرة في المبدأ الأساسي للتحليل النفساني الذي تعمل بموجبه الحياة النفسية لجميع الناس بالطريقة نفسها، وبالتالي يوجد تفسير عام لأشكال السلوك يمكن أن يطبق بشكل إجمالي انطلاقاً من بضعة مفاهيم أساسية. ويحل اتجاه شخصي إدراكي محل اتجاه إجمالي تفسيري.

فعلى عتبة الخمسينات، جرى التوافق على مفهوم العالم الشخصي بين معظم الباحثين في العلوم الإنسانية. وظهرت حينذاك إشكالية جديدة. ولم يعد ينبغي معرفة أشكال رؤية العالم لهذه المجموعة أو تلك، أو هذا الفرد أو ذاك. وتبدو البنائية المعاصرة كأنها جواب الاتجاه العلمي على السؤال الذي طرح في الخمسينات حيال الوضوح الجديد لوجود الميادين الخاصة المختلفة.

I ـ المرض الذهني كبنية وهمية

لنلاحظ في بادىء الأمر أن الكتّاب في جميع الأزمان قد أبرزوا الفكرة القائلة إن الناس يوجهون حياتهم حسب رأي وهمي أنهم يصنعون أنفسهم وعالمهم بأنفسهم. وإن شخصيات، مثل دون كيشوت وتارتاران دو تاراسكون، هي من الشواهد على ذلك. وقد أظهر غ. فلوبير، مع البطل في روايته مدام دو بوڤاري،

كيف يمكن للوهم أن يوجه حياة الأفراد. كما أبرز جول غوتييه هذه الظاهرة تحت اسم «البوڤارية».

وتعود مصادر التشكيلية المعاصرة إلى مواقع مختلفة من تاريخ علم النفس وخاصة لدى ألفرد أدلر (1919) في مفهومه عن «الواقع الوهمي» الذي يبنيه المريض حماية لنفسه. ولصياغة هذا المفهوم، تأثر آدلر بمؤلف هانس ڤايهنغر (فلسفة الـ «كما لو أن») الصادر في عام 1911. في هذا المؤلف، يبين هذا الفيلسوف الدور الذي كانت تلعبه الأوهام في العلم، ويوضح الفوارق بين الأوهام والفرضيات. وعلى عكس الفرضية، فإن الوهم عنده لا يحتاج إلى أن يكون حقيقياً ولا حتى محتملاً. ولا يخضع لدلالة التجربة، إنه شكل من الكلام يستخدم طالما بدا مفيداً، ويُترك عندما يصبح غير مفيد أو عندما يمكن استبداله بوهم أفضل. وقد استخدم آدلر هذا المفهوم بطريقتين. في البدء كمبدأ منهجي، حيث كان يقدم نظريته في علم النفس كنظام من الأوهام. وكان يجري ذلك «كما لو أن» الإنسان يظل يبحث عن تعويض دونيته البدائية طيلة حياته، و «كما لو أن» «العُصاب» له هدف وهمي يوجه طريقة معيشته. . . كما كان هذا المفهوم للوهم يستخدم لتوضيح النظام الشخصي الذي يبنيه شخص معين لمواجهة وضع في حياته بشكل غير ملائم. وفضلاً عن ذلك، غالباً ما كان يسجل أن المرض «واقع وهمي» يصوغه المريض ليحمي نفسه، أو ليحوِّل وضعاً لا يروق لصالحه.

II ـ المرض الذهني المتكوِّن في العائلة

بنائية الطب النفسي المضاد

الطب النفسي المضاد تيَّار تطور في البلدان الناطقة بالانكليزية منذ عام 1940. وكانت تجربته الأولية في اكتشاف أن العائلات كانت تحدد هوية المرض من بعض أفرادها، استناداً إلى مراقبة أشكال السلوك وتسجيل المحاورات. في هذه الحالات كان المرض «يصنع» من قبل الأهل الذين كانوا يعرضون أو يفرضون على أولادهم هوية مشوهة عنهم.

إن قسماً من الأبحاث التي أجراها الطب النفسي المضاد يحاول إلقاء الضوء على الاجراءات اللغوية والاجتماعية المستخدمة لإدخال أناس في بعض التعريفات،

ويبين لاينغ أن الواقع الاجتماعي هو تجربة متبادلة بنيت عبر التفاعلات وأدوار المرآة المتاحة بالتفاعل البشري[1]. وفي بعض الحالات، لا يجري هذا البناء بتأثير متعادل. وهكذا يفرض مهيمن ما أو فريق من المهيمنين على الآخرين تحديداً للواقع فمثلاً، يميل الطبيب النفساني، أمام «مريض»، إلى الاعتقاد بأنه أمام «واقع» غير قابل للشك، فيقوم بـ «معاينة سريرية» بحضور الشخص المعني الذي يصغي إليه كـ «مريض»، ويتصرف كما لو أن وجود هذا الواقع ثابت. وينبغي بعد ذلك اكتشاف الأسباب أو العوامل المرضية المتعددة، وتعزيز تشخيصه وتقرير معالجة معينة. ويحدد الموقف والكلام والافتراضات وحتى الوضع الاجتماعي الذي يضع الطبيب النفساني مريضه فيه، الواقع الخاص لـ «مريضه» الذي لا يستطيع الهروب منه، و «المدفوع» نحوه للتوافق معه. وينتهي بالاندماج مع الفكرة التي لدينا عنه[2].

III ـ البناء الاجتماعي للواقع اليومي

بمتابعة هذه الأفكار، ساهمت المدرسة الظواهريّة في العلوم الاجتماعية في إظهار «البناء» الاجتماعي للواقع. وعند علماء هذه المدرسة أن ميزة أساسية لـ «الواقع البشري» هي أنه يقتضي بناء للمستوى العادي واليومي للتبادل مع أمثالنا. ونستعيد حول هذه النقطة برهان شوتز[3].

ففي التبادل البسيط للأسئلة والإجابات، نرى هذا النشاط البنائي جارياً. ذلك أنه حين أتوقع أن أُسأل، فإنني استبق أن الآخر يفهم عملي كسؤال، وأن ما سيفهمه يحثه على التصرف بحيث أستطيع فهم سلوكه كجواب ملائم. (أنا: «أين الحبر؟»، يشير الآخر إلى الطاولة). ويكون الدافع لفعلي «قصد» الحصول على معلومة ملائمة تفترض، في هذا الوضع الخاص، أن يصبح مفهوم «قصد» هو «لأن» الآخر، للقيام بفعل «قصد» تزويدي بهذه المعلومة ـ بقدر ما يكون قادراً وراغباً في القيام به ـ وأقبل أن يكون ذلك. إنني استبق أن يفهم لغتي، وأن يعلم أين هو الحبر، وأن يقول لي

---

(1) R. D. Laing, La politique de la famille, Stock, 1967, p. 54.

(2) On retrouve la même analyse dans le chapitre «Etre sain dans un environnement malade» de D. L. Rosenhan, in Watzlawick, L'invention de la réalité. Contributions au constructivisme, Seuil, 1988, p. 131-160.

(3) A. Schutz (1953), Sens commun et interprétation scientifique de l'action humaine, in A. Schutz, Le chercheur et le quotidien, Méridiens-Klincksieck, 1987, p. 7-63.

ذلك إذا كان يعلم به إلخ. . . وبتعابير أعم، استبق أنه سيكون موجهاً بالنمط نفسه من البواعث التي بموجبها أكون أنا ذاتي وكثيرون آخرون موجهين في ظروف مماثلة. . . إن مثالنا يبين بالتالي أنه حتى التفاعل الأبسط في الحياة العادية يفترض جملة من البنى الجارية والمستندة كلها إلى فكرة أن بواعث «قصد» الفاعل تصبح «لأن» شريكِهِ والعكس بالعكس».

وقد حلل بيرجه P. Berger ولوكمان T. Luckman المكملان لشوتز، أسس البناء الاجتماعي للواقع اليومي وبينوا كيف تخدم عناصر «المعرفة المشتركة» بناء كل واقع اجتماعي[1].

هكذا تكون «الوقائع» التي نستند إليها في الحياة اليومية هي نتيجة عمل بناء جماعي يتم عبر التبادل ويرتكز على قواعد عقلانية نشترك فيها مع أعضاء مجموعتنا الثقافية (منهجيات الأجناس)[2].

IV ـ علم نفس التصورات
وعلم النفس المعرفي

منذ حوالي عشرين سنة، يطور علم النفس الاجتماعي دراسات حول مفهوم «التصور». ولهذا المفهوم، كما يقول موسكو ڤيتشي، موقع «عند ملتقى جملة من المفاهيم الاجتماعية والنفسانية»[3]. كذلك يمكننا القول إن هذا المفهوم هو ذاته ملتقى عدة مفاهيم لأنه يغطي عدة مستويات تحليلية للظواهر الاجتماعية. فعلى الصعيد الأكثر ظاهرية، يكون التصور «رسماً تصويرياً» لما هو معطى للرؤية، ما يعاد بصورة رمزية، ويحمل بالتالي، شارة الفاعل ونشاطه. وعلى صعيد آخر، يكون التصور «شكلاً من المعرفة العملية» ونوعاً من الصياغة والتكامل الشخصي أو الاجتماعي للمعلومات المتوفرة عن شخص معين. وتخدم هذه المعرفة بشكل أساسي «التكيف العملي للشخص مع محيطه». وعلى صعيد أكثر باطنية فإن

---

(1) P. Berger et T. Lukmann (1950), La construction sociale de la réalité, Méridiens-Klincksieck, 1986.

(2) H. Garfinkel (1967), Studies in ethnomethodology, Englewood Cliffs, Prentice-Hall, 1984.

(3) S. Moscovici, Psychologie des représentations sociales, Cahiers Vilfrid Pareto, 1976, 14, P.409-416.

التصورات الاجتماعية «نظام تفسير يحكم علاقتنا بالناس، ويوجه وينظم التصرفات والاتصالات الاجتماعية». وهي تعمل كنظام معرفي (بتداخلاته العاطفية والاجتماعية) لفهم العالم والتحرك فيه. وعلى صعيد آخر، باطني كذلك، يكون التصور الاجتماعي نوعاً من الأساس للمعارف «المتبلورة اجتماعياً والمساهمة في بناء واقع مشترك لمجموعة اجتماعية».

إن علم النفس المعرفي يدرس «مجموعة الظواهر الناتجة عن الترميز والتخزين والمعالجة الإعلامية من قبل الجهاز العصبي المركزي[1]». إنه يوضح خاصة عدداً معيناً من العمليات الذهنية يشدد عليها علم نفس الشكل وعلم نفس التصورات: الاستدلال الكيفي (استخلاص نتيجة دون مبرر حقيقي)، والتجريد الانتقائي (استخراج كيفي لتفصيل في نص معين) والإسهاب أو التقليل (تكثير أو تقليل أوجه معطى معين)، والتعميم المبالغ فيه (استخلاص نتيجة اعتباراً من حالة خاصة) والتشخيص (المبالغة في تقدير العلاقة بين المعطى والذات). وتستخدم المعالجة المعرفية هذه النتائج في تدخلها مع الشخص لاستبدال تفسيراته بأخرى أقل تشاؤماً وأكثر تكيفاً.

٧ ـ بنائية مدرسة پالو ألتو

تجد البنائية نتائجها في تعابير مدرسة پالو ألتو التي تدعم فكرة أننا نبني العالم في حين نظن أننا ندركه، وأن ما نسميه «واقعاً» هو تفسير مبني بالاتصال وعبره. ذلك أن الكائن البشري وحده المسؤول عن معرفته، وأن هذه المعرفة للناس تبنى بغير وعي للخصائص الفيزيائية ـ الكيميائية للواقع، مما يبعدنا عن هذا الواقع» بقدر ما يكون لمسارات الحركة الذاتية والانتظام الذاتي والإحالة الذاتية للشبكات العصبية من خصائص «بارزة». وتتعرى الفكرة الدائرية بعد ذلك، بواسطة مثال من ارتجاع الفعل (الحلقات المفرغة، التنبؤات التي تتضح بذاتها، التشخيصات والأوضاع المحققة للمرض. . .) وفي النهاية «يظهر أن تجربتنا لا أساس لها: حيث تكمن في ما نستخلصه من تفسيرات وحالات انتظام من تاريخنا المشترك كائنات

(1) J Cottraux, La thérapie cognitive, Masson, 1992.

بيولوجة واجتماعية. وداخل هذه المجالات الرضائية من التاريخ المشترك، نعيش في متوالية من التفسيرات التي لا تنتهي».

وعلى عكس «الوقائع» الموضوعية التي كان الوضعيون يبذلون الجهد لتوضيحها، فإن البنائية تؤكد ألا وجود لـ «حقيقة في ذاتها». فالحقيقة لا معنى لها إلا بالنسبة إلى مجموعة اجتماعية معينة وبالنسبة إلى اتفاق الفاعلين حول تعريفها. وليس الواقع واقع - حقيقة. إنه واقع «مدرك محلل» يومياً من قبل مجموعة فاعلين. إنه قبل كل شيء «معنى مشترك» لمجموعة، ثم بناء علمي.

خلاصة

كما أوضحنا بشكل واسع، لقد ساهمت جميع المعطيات العلمية لثلاثينات القرن الحالي، في بادىء الأمر، في تثبيت فكرة أن كل إنسان كما كل مجموعة ثقافية، يعيش في «عالم» خاص، ويكون جزء منه فقط مشتركاً بين أعضاء المجموعة أو المجتمع الذي ينتمي إليه.

وترافقت هذه الثورة مع ثورة منهجية لم نرسمها إلا بخطوط عريضة في الأمثلة التي عرضناها. فالعلوم الإنسانية، مع فرويد، كانت تنطلق من ملاحظات، ثم بعد تكوين مدرسة التحليل النفساني، تحولت إلى التفسير المؤسس على النظرية. على هذا الأساس كان ينبغي «إدخال» ما كان يُرى في القالب النظري أكثر مما كان يلاحظ ويسجل من الوقائع الجديدة[1]. خلال هذا الوقت كانت الفروع الأخرى لعلم النفس توسع الملاحظة والاختبار (يشار هنا إلى علم النفس الحيواني أو علم النفس الطفلي). وبالعودة إلى الملموس، تحمل هذه الملاحظات أكثر فأكثر من تأكيد وجود أشكال الإدراك والرؤى... والتفسيرات المختلفة للعالم المتكون مما كان يجب أن يُدعى مع الاتجاه الوجودي للأربعينات عالماً خاصاً. وعبر جميع هذه الجهود للدخول إلى هذه «العوالم الخاصة» الفردية والجماعية أو الثقافية، كان الباحثون قد اكتسبوا موقفاً جديداً للدخول إلى الميادين النفسانية: الموقف الإدراكي. وكان الوقت قد حان، في الخمسينات، لكي تُستأنف بديهيات دلتاي وتصاغ تعابيرها، ثم تُكرَّس

(1) C. Chiland, L'avenir de la psychanalyse, in Psychologie de demain PUF, 1982.

بكتابات روجرز (1942) وبالنشر المدهش لمفهومه التفخيمي للإنسان[1]. وارتبك التحليل النفساني بهذه التجديدات النظرية وخاصة في مفهوم الإدراك الذي لا يقابل تطبيقه التفسيري للحالات النفسية وأشكال السلوك.

وفي الخمسينات تعرضت العلوم الإنسانية لانعطاف هام آخر: حيث جرى التساؤل لمعرفة كيف يكون وجود هذه «العوالم الخاصة» ممكناً، كما كيف يكون تعايشها ممكناً، لقد رأينا أن الإجابة الشاملة التي أخذت مكانها بالتدريج قد أدت إلى الاتجاه التشكيلي المعاصر: حيث «بنيت» العوالم الخاصة انطلاقاً من بعض عناصر التجربة الفردية أو الجماعية.

وفي الستينات ظهرت إشكالية جديدة في العلوم الإنسانية: فكان ينبغي معرفة المعلومات الأساسية لهذه العوالم الخاصة. وعرض علم النفس الجديد جوابه حينذاك؛ فالعالم هو أساسا خارج الفرد، ويتكوّن من مجموعة من الصلات المتبادلة.

(1) C. Rogers (1942), La relation d'aide et la psychothérapie, Ed. ESF, 1970.

القسم الثالث

علم النفس الجديد أو الإنسان المتصل

المراجعة التاريخية التي قمنا بها تسمح لنا بالقول إن إشكالية علم النفس في ثمانينات القرن الماضي (التي يرتبط بها التحليل النفساني) كانت البحث في تفسير أشكال السلوك المرضية، وإن إشكالية الثلاثينات من القرن الحالي (التي يرتبط بها علم النفس الجديد) هي مختلفة عن الأولى بصورة كلية. فينبغي فهم كيف يرى الإنسان العالم، وفهم المرضي انطلاقاً من الطبيعي وليس العكس.

وبعد تثبيت فكرة وجود العوالم الفردية والاجتماعية، كان ينبغي معرفة أية عوالم كانت المعنية. وتبلور الجواب المقدم من قبل علم النفس الجديد في مقابل فرضيات التحليل النفساني. وإدراك علم النفس الجديد هذا العالم كعالم من التفاعلات مع الخارج، قابل للتعامل معه عبر مسائل محددة وليس كعالم داخلي خارج عن نطاق الوعي.

الفصل الأول

المعالم التصورية

لعالم علاقات علم النفس الجديد

I ـ التفاعل

أولية التفاعل.ـ التفاعل، لدى العديد من المؤلفين، ميزة تفاضلية للظواهر البشرية. ويعتقد بشكل عام أن ميد G. H. Mead (1934) الذي كان أول من أظهر أن الأنا لا وجود لها إلا في التفاعلات الاجتماعية وبها، ومسار التفكير ذاته هو من طبيعة تفاعلية لأن مصدره في الكفاءة المتدرجة لتبني وجهة نظر الآخرين حول ذاته[1]. وقد وسع لاينغ (1963) الأقرب إلينا، هذه البديهيات في كتابه «علم الظواهر الاجتماعية». فهو يرى ألا وجود لكائن إلا بالعلاقات التي يقيمها مع الآخرين. ذلك أن «جوهر الكائن، وجميع الكائنات، هو الصلة التي يقيمونها فيما بينهم»[2].

ويعتقد **واتزلويك** أن مفهوم التفاعل يُدخل في العلوم الإنسانية كسراً في منشئها الأصلي مماثلاً للكسر الذي أدخله مفهوم التابع في العلوم الرياضية في القرن السادس عشر[3]. فهو يقول: «بالنسبة إلى علماء الرياضيات اليونانيين، لم تكن الأعداد إلا قيماً ملموسة وحقيقية تفهم على أنها صفات الأشياء الحقيقية. ومع المراجعة، ظهر

(1) G. H. Mead (1934), L'Esprit , le Soi et la société, PUF, 1948.
(2) R. Laing (1963), La politique de l'expérience, Stock, 1969, p. 34.
(3) P. Watzlawick, J. Helmic, J. Beavin, D. Jackson, Une logique de la communication, Seuil, 1972, p. 18-20.

هذا المفهوم للعدد شأنا حصرياً. ومع ڤييت Viète (1591) تجاوز الفكر الغربي هذا المفهوم للعدد ـ القيمة. وأدخل العد الرمزي مفهوم المتغير. فالمتغير بحد ذاته لا معنى له، ويأخذ معناه في العلاقة بالآخر. والصلة بين المتغيرات تؤسس لمفهوم التابع». وهذه التوابع ليست أعداداً بل مجموعات متغيرة تعبر عن تركيبات عامة. ويعبر التابع عن لا نهائية الأوضاع الممكنة ذات الطابع الواحد (كونها مرتبطة بالتابع). ويقول واتزلويك هناك موازاة واضحة بين ظهور المفهوم الرياضي للتابع وانفتاح علم النفس على مفهوم الصلة». وفي الواقع ظل الفكر طويلاً يفهم على أنه مجموعة خصائص أو صفات تمنح للفرد (الوظائف النفسية: الذاكرة، الإدراك...). وقد بلور علم النفس التحليلي وعلم النفس التجريبي مفاهيم يمكن مقارنتها بمفهوم قيمة رياضيات الماضي. وتقصد هنا ماهيات لها وجود خاص يمكن أن تُعزى إلى الأفراد. وتسمح هذه الماهيات بتفسير سلوك الأفراد. و «كانت مفاهيم مثل الزعامة، والتبعية والانفتاح على الخارج، والانطواء على الذات، وتقنية الأمومة مواضيع لدراسات معمقة. وتحولت إلى وقائع كاذبة، لكونها سكونية تقريباً. وتصبح الزعامة في النهاية «زعامة» كمية قابلة للقياس من الذهنية البشرية المدركة ذاتها كظاهرة منعزلة. وتكمن الثورة في العلوم الإنسانية، على غرار الثورة في الرياضيات التي جعلت علماء الرياضيات ينتقلون من مفهوم القيمة إلى مفهوم التابع، بالانتقال من مفهوم الوظيفة الذهنية إلى مفهوم نظام للعلاقات».

إن أولية العلاقة مبررة جداً في علم النفس الجديد الذي يبين أن الإدراك هو إدراك للعلاقات قبل كل شيء. و «أكدت الأبحاث حول النشاط الحسي والعقلي بشكل حاسم أنه لا يمكن إدراك إلا علاقات وأنماط من العلاقات، وهنا جوهر التجربة. فالإدراك البصري الواضح لا يعود ممكناً إذا منع جهاز بارع حركات العينين بحيث تكون الصورة ذاتها تُرى من النقاط من القرنية. كما يكون من الصعب إدراك صوت متواصل وغير متموج، فيمكن في الحد الأقصى أن يتوقف عن لفت انتباهنا. أو كذلك، إذا أريد اختبار قساوة وبنية سطح معين، فلا يكفي وضع الإصبع على هذا السطح، بل يجب تحريكها عليه، وإذا ظلت الإصبع جامدة، فإنها لا تنقل أية معلومة مفيدة، ربما عدا الإحساس بدرجة الحرارة، الذي ينجم عن الفارق النسبي في الحرارة بين الشيء والإصبع (نرى هنا كيف تكاملت دروس علم نفس الشكل)

هكذا إن مساراً من الاتصال يدخل في كل إدراك».

إن أولى خصائص العلاقة البشرية أنها «موضوع رأي يشترك فيه الأطراف بشكل معين وفي أحسن الحالات»[1]. وتكون العلاقة بالتالي واقعاً من الدرجة الثانية، يعني شيئاً ناتجاً عن عملية اتصال بين الفاعلين المعنيين. ونرى هنا كيف يجد الاتجاه التشكيلي تطبيقاته. وحول تعريفات وهمية للعلاقات التي يقيمها الناس فيما بينهم تجري جميع الأمور الجوهرية في الحياة.

مثال جديد ومفهوم جديد للإنسان. ـ يرتكز علم النفس الجديد على بديهة يمكن صياغتها كما يلي: كل كائن و/أو شيء و/أو محيط يوجد لأنه يقيم مع الكائنات الأخرى و/أو الأشياء و/أو البيئات، تفاعلات تتداخل في نظام معين. وتظهر خصائص وميزات ووظائف هذه الكائنات و/أو الأشياء و/أو البيئات. . . إذا كرسنا شكل تحليل يوضح ميزات أنظمة التفاعل التي تتداخل فيها.

هذا العنصر القياسي يتعارض مع الرؤية التقليدية للسببية، لأن الكائن يتحدد استنادا إليها في العلاقة وبها. وتحديد الذات والعلاقة والشكل الآخر كل لا ينفصم، ولا يمكن محاولة عزل تحديد الكائن بشكل أساسي في علاقة ما عن غيرها[2]. يقيمها مع العالم، ويشكل ذلك معطى ثابتاً بالنسبة إلى علم النفس الجديد، ويؤكده علم النفس السريري، لأن المريض الذهني يجد أن قدرته على عقد علاقات مع محيطه قد اضطربت.

هكذا نصل هنا إلى تعريف جديد للفرد ككائن ـ في ـ علاقة، ويصبح كل كائن حاملاً لمجموعة علاقات أو قائماً لمحاولة فرض تفاعلات مع العالم ومع الآخرين. ويقول وانزلويك: «في كل اتصال، يتبادل الشركاء تحديداً لعلاقاتهم، أو للأشياء، فيحاول كل واحد تحديد طبيعة العلاقة التي تربطهم. . . فضلاً عن ذلك، كل حضور أو موقف حيال الدور الآخر هو تأثير. ويرتبط مفهوم التأثير بدقة بمفهوم التفاعل ونظام التفاعل، ويكون كل سلوك حيال شخص آخر، مهما يكن، اتصالاً يُظهر

(1) Watzlawick (1988) Les cheveux du baron de Münchhausen, Seuil, 1991, p. 52.
(2) D. Jackson, in P.Watzlawick (sous la dir. de), Sur l'interaction, Seuil, 1981, p. 31.

علاقته بالآخر، وبالتالي، تأثيراً «عليه»[1].

II ـ أشكال التفاعل

لقد عمق التحليل النفساني كل ما يتعلق بالدافع، بأشكاله الثابتة وبتحولاته، والدافع أحد مفاهيمه الأساسية. أما علم النفس الجديد فإنه يعمق مفهوم التفاعل الذي يقيم عليه بناءه.

الاتصال الرقمي وَالمماثل. ـ لقد حلل علم النفس الجديد بالتفصيل ميزات التفاعل. ويبيِّن في بادىء الأمر أننا نستخدم للاتصال فئتين كبيرتين من الإشارات: إشارات رقمية (كلمات تفهم انطلاقاً من رموز محددة) وإشارات قياسية (حركات، وضع الجسم، المماثل للكلام، كلها تؤدي إلى رموز محددة). إذا التقيت شخصاً على منعطف ممر، وإذا قال لي: «أنا مسرور برؤيتك»، وفي الوقت نفسه، أبدى جسده حركة تراجع، إنه «يتصل» بي مع النمط الرقمي والقياسي. شفهياً يقول لي شيئاً معيناً، وبما يشابه الكلام (بوضعه وحركاته) يقول لي شيئاً آخر. وفي دراسة أنظمة التبادل، يحاول علم النفس الجديد تحديد معالم هذين المستويين من الاتصال اللذين يعملان في آن معاً.

الاتصال وما وراء الاتصال. ـ لكل اتصال بين الأشخاص ميزة أساسية أخرى هي في آن معاً اتصال (نقل شيء معين) وما وراء الاتصال (وصف ما ينقل في وضع معين). ففي الواقع، حين نتكلم مثلاً، لا يمكن تجنب أن نعني عبر ما يشابه اللغة، ما نفكر فيه بما نقوله: هكذا، يمكن أن أقول: «أحبك» لشخص معين، بلهجة ووضع جسدي يمكن أن يوحيا بأنني بذاتي لست متأكداً من ذلك. كما أنه، حين يؤكد شخص شفهياً «أنه حر في التعبير» أمام شخص آخر حاضر في وضعه بينما تكون نظرته هاربة ولا تستطيع الثبات على هذا الشخص، فإنه يتصل بملامح بعيدة عن كونه متأكداً مما يعلن. هذه الميزة الأساسية للاتصال بين الناس هي في الأساس لما تسميه مدرسة پالوألتو المفارقات العملية.

---

(1) P. Watzlawick et al. (1967), Une logique de la communication, Seuil, 1972, p. 133.

الاتصال المجازي. - إن جميع أشكال السلوك البشري تحمل بالتالي ملامح اتصال مماثلة. ولا تأخذ هذه الملامح المماثلة معناها النهائي إلا في السياق العام. إذا قالت امرأة مثلاً لزوجها: «عندي ألم في الرأس»، فإن إعلانها الصريح يتعلق بعدم ارتياحها (هذا هو المعنى الرقمي)، أما تماثلاً فإنه يمكن أن يعبر هذا الإعلان عن عدم الرضى عن الوضع القائم، كما يمكن أن يكون كذلك التماساً من زوجها لمساعدتها على الاهتمام بالأولاد (يرتبط ذلك بالسياق العام). ومن جهة أخرى، إن سلوكاً في سياق معين يمكن استبداله بسلوك آخر يعبر، في السياق نفسه، عن الشيء ذاته في السلوك الأول. فيقال حينذاك أن السلوك الثاني هو تعبير مجازي عن الأول. وقد أظهر علم النفس الجديد أنه غالباً ما كان وجيهاً اعتبار «الأعراض» التي هي أشكال سلوك «تطرح المشكلة» كتعابير مجازية. المثال على ذلك، حال زوج يعاني متاعب في عمله وتحاول زوجته توفير الراحة له دون جدوى. وحين يتعرض أحد أولادهما لآلام حادة مجهولة الأسباب ويهتم الأب به ويحاول مواساته دون جدوى (مثلما جرى معه من قبل زوجته). فإن التفاعل بين الأب والابن قد حل محل التفاعل الزوجي مموهاً مشكلة الأب. وفي السياق العائلي، يعبر هذا التفاعل عن المشكلة العميقة ذاتها من عدم الاستقرار لهذه العائلة أمام مشكلة «خافية عليها»[1].

تفاعلات متناظرة وتكميلية. - ويحصل استقراء متبادل للأدوار حين يتصرف مثلاً، فرد - أ ذو سلطة متفاعلاً مع آخر - ب، وتحت تأثير هذا الاستقرار، يرد - ب بسلوك من الخضوع. ويُسهّل هذا الرد من الخضوع الدور السلطوي للشخص - أ. ويدخل الاثنان حينذاك في مبادلات «تراكمية» تشجع على تكوين الأدوار التكميلية[2]. هذا المسار، هو «الاستقراء التكميلي المتبادل». وعلى عكس هذا المسار، يوجد مسار «من الاستقراء المتناظر» حيث، على فعل أحدهما، يرد النمط ذاته من فعل الآخر، جارّاً الأفراد في مزايدة لا نهاية لها. وحينذاك يبذل الشركاء الجهود لترسيخ واستمرار المساواة في المواقع ويتبادلون التأثيرات «في المرآة». وقد بسَّط ج. هالي هذا المفهوم للاستقراء المتبادل بالتحدث عن موقع أعلى وموقع

(1) C. Madane (1981), Stratégie en thérapie familiale, Ed. ESF, 1991.
(2) G. Bateson (1936), La cérémonie du Naven, Ed. de Minuit, 1971.

أدنى. ويوجه الفرد في الموقع «العالي» وبيده مسؤولية التفاعل، ويصوب صاحب الموقع «الأدنى» وضعه ويجيب على المبادرات. وتسمح هذه المفاهيم بتحليل أنظمة التبادل. ولأجل ذلك، لا بد من تفحص كل تبادل في سلسلة التفاعلات التي يجري فيها، ويمكن أن يصنف تبعاً لما جرى قبل ذلك. وقد عرض سلوزكي وبيفن علم تصنيف عام للتسويات التكميلية والمتناظرة[1].

تفاعلات التثبيت أو الإبطال ـ. في التفاعل يجري على الدوام بناء هوية كل كائن، حسب علم النفس الجديد. فلا بد أن تهتم كل دراسة بوضع نظام للأوامر (الصريحة والضمنية). يعرضه كل شخص أو كل مجموعة على الآخرين. ويمكن أن تكون أوامر تثبيت أو أوامر إبطال. وتنجم الاضطرابات في الهوية عن تفاعلات الإبطال بين أم وابنتها الفصامية. وجرى الحوار التالي، بحضور طبيب نفساني بين كلير Claire الفصامية، والخاضعة للعلاج في المستشفى منذ خمس سنوات وأمها.

الأم 1: لسوء الحظ، نحن نسكن في منزل ضيق الآن. ما أريد قوله، هو أننا اعتدنا على أن يكون لنا منزل أوسع في الماضي. مثلك، كنت أحب الحصول على منزل، غير أننا لا نحصل دائماً على ما نريد. ويجب التحلي بالطيبة في وجه الحظ التعيس. ولا أظن أن والدك وأنا قادران على الحصول على مسكن واسع كما في الماضي، وكما قلت لك مرة، مع تقدمنا في العمر وفقداننا لوسائل الماضي، لا يمكن أن يتاح لنا رفاه الماضي».

الفتاة 1: «بالطبع، لكنني لست مرغمة على السكن معك، أليس كذلك؟».

الأم 2: «كلا، المسألة كما ترين يا كلير، هي أنك تكونين مرغمة على الاختلاط مع أكثر من خمسة أو ستة أشخاص، حتى ولو كنت تسكنين في منزل».

الفتاة 8: «لا أعرف كيف أتفاعل الآن».

الأم 9: «هذه هي المسألة، يا كلير، إنها كما ترين تغيظ الآخرين؛ أنا أستطيع الاحتمال، ووالدك كذلك، لكن من الطبيعي أن يشعر الآخرون أنهم متضايقون أكثر

(1) C. E. Sluzki et J. Beavin, Symétrie et complémentarité: une définition et une typologie des dyades, in Sur l'interaction, sous la dir. de P. Watzlawick et J. Weaklang, Seuil, 1977, p. 98-177.

مما ينبغي، إنه لمزعج جداً».

الفتاة 9: «لا أرى لماذا. إذاً شعروا بالضيق أكثر مما ينبغي، فذلك يكون مؤسفاً جداً».

الأم 10: «معك حق، في معنى معين، لكن الواقع أنك لا تستطيعين متابعة التصرف على هذا الشكل. لا يمكن أن نعيش لذاتنا وحدنا»[1].

في هذا الحوار، ترفض الأم نمط وجود ابنتها مع مبررات تهدف إلى أن تبيّن لها قصورها النهائي، إنها «تبطل» باستمرار الوجود التي تريد أن تعيشه (وجود ربما تغير وربما يأخذ فرصة ثانية باندماجها داخل عائلة سليمة جاذبة، ذلك هو طلب «تثبيت» الابنة).

تفاعلات التماس والإقصاء والمخادعة.ـ تفاعل التماس هو رد لا يستجيب بصورة تامة لطلب معين، لأنه يلعب على عناصر مختلفة من الطلب اختياراً لتمييز أحدها فقط. أما تفاعل الاقصاء فهو رد يتحول فيه الطلب من قبل المجيب الذي يضع رغباته الخاصة في المقدمة، ولا يأخذ في الاعتبار السياق العام ومؤشرات الإبطال، ويكون فيه محتوى الرد متعارضاً مع هذه العناصر[2]. وأما تفاعل المخادعة فهو رد على اقتراح يدفع مُقدّمه إلى الاعتقاد بأنه قال أشياء لم يقلها.

III ـ نظام التفاعلات

هذا هو العنصر القياسي الثالث الهام في علم النفس الجديد. أدخله علم البيئة وثبته علم التوجيه الأوتوماتي في الأربعينات.

ففي علم البيئة يشكل الجسم ومحيطه «ثنائيًا أساسيًا». وهو يطرح التفاعل بين الجسم والعوامل المكوّنة للمحيط. أما «المحيط» فهو جزء من العالم الذي يكون الجسم على اتصال به. وفي علم البيئة أيضاً أنه لا شك في تأثير العوامل المكوّنة

(1) R. D. Laing (1969), La politique de la famille, Stock, 1972.
(2) C. E. Sluzki, J. Beavin, A. Tarnopolsky, E. Véron, Disqualification transactionnelle: recherche sur la double contrainte (1977), in P. Watzlawick et J. Weakland (sous la dir. de) Sur l'interaction. Seuil, 1981.

للبيئة (العوامل المادية والنفسية) على التطور وعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) والسلوك وخصوبة الجسم، وتتأثر هذه العوامل بدورها في التبادل وبه. ويكون هدف علم البيئة بالتالي دراسة الوحدة البيئية. يعني شبكات التأثير المتبادل بين الكائنات الحية وعوامل المحيط.

واستناداً إلى روس أشبي Ross Ashby وعلم التوجيه الأتوماتي يجب الانتقال إلى دراسة الأنظمة المعقدة، وهنا يتوقف فعل حجة السبب ـ التأثير: ويبين كون عقيدة جامدة مثل «تغيير العوامل واحداً واحداً» أمكن أن يظل مقبولاً خلال قرن من الزمن أن موضوع الأبحاث العلمية كان إلى حد كبير أنظمة تسمح بهذا المنهج (يعني أنظمة مغلقة) لأن مثل المنهج لا يخص دراسة أنظمة معقدة[1].

والنظام في علم النفس، حسب واتزلويك، هو مجموعة تفاعلات تعطي معنى لفعل يتداخل فيه[2]. وإن فعلاً أو اتصالاً يعني تفاعلاً، ولا معنى له حين يُحلل وحده. وعلى هذا، فهو يقول إن «قطعاً منعزلاً» لسلوك هو (كما في لعبة الشطرنج) غير قابل للتحديد، يعني مفرغاً من المعنى... ويمكن لمثل هذا القطع للسلوك أن ينجم عن زيادة في الأجرْ، أو عقدة أوديب أو الكحول، أو زخة من البرَد، أو أي نقاش يخص البواعث التي هي «مثار للجدل في الواقع»، ويحمل كل المظاهر ليشبه الجدل البيزنطي حول جنس الملائكة. وبانتظار أن يكون الفكر البشري سهل المنال لامتحان من الخارج، تكون الاستنتاجات والشهادات الشخصية هي كل ما نملك، ومن المعلوم أنه لا يمكن الثقة بالأولى ولا بالأخرى. غير أنه إذا لاحظنا أن سلوك ـ أ لأحد الشريكين ـ مهما كانت «البواعث» ـ يحث على الإجابة في السلوك ب، ج، د و هـ للآخر، لكنه يستبعد بالمقابل سلوك س، ش، ز، يصبح ممكناً صياغة قاعدة توضح «الضربة المدبرة».

IV ـ خصائص أنظمة التفاعل

لأنظمة التفاعل خصائص بارزة: قوة ثباتها، الوجود المتماثل الصريح (تماثل

(1) Ross Asbhy, An introduction to cybernetics, Londres, Chapman & Hall, 1956, p. 5.
(2) P. Watzlawick et al. (1967), Une logique de la communication, Seuil, 1972, p. 37.

في الشكل) بين ما يرتبط بفاعل واحد وضبطها الذاتي التحكم.

قوة ثبات أنظمة التفاعل.ـ يجب أن نسجل في أول الأمر ظاهرة القوة الخاصة للرسوم البيانية للتفاعل. فيرى لاينغ، كما بيرن، أن كل ما يميز الفرد وكل ما هو مطبوع عليه» هي علاقات وليست أموراً «مجردة». والسياق التفاعلي هو الذي يطبع «أشكاله» في الحياة النفسية. وتميز هذه الأشكال الفرد، ويحاول الراشد التصرف بها بشكل معين. وتتدخل العائلة وأفرادها في هذه الظاهرة من التأثير. ويستبطن الولد نظامها من الأدوار والعلاقات. ويحاول بعد ذلك نقل الأشكال الوجودية للعلاقات إلى علاقات أخرى في العالم الذي كوّنه في طفولته.

ويحصل تحول لتجربة لحظة معينة إلى التجارب الأخرى. ونورد المثال التالي:

«كان روجيه الابن البكر والمفضل لدى أمه، وكانت هي تنظم باستمرار مباريات بين أولادها وتتصرف بحيث يكون روجيه دائماً الفائز الذي يحظى بالتهنئة والمكافأة. وبالطبع كان روجيه قد طُبع بعمق بهذه الطفولة. وكان يسعى جاهداً طيلة حياته التي عاشها كمباراة دائمة، ليكون الأول في كل شيء. لكن سمات أخرى كانت تميز هذا الدور الأول الجميل». ولم يكن يتحمل، مثل أمه التي كانت تدافع عنه بغض النظر عن أي طرف، الحد الأدنى من النقد. ومثل أمه، كان ينظم مباريات بين المقربين ويوزع بطاقات جيدة تثير الغيرة. وكان يصاب بالحيرة حين تعرضت حياته لسلسلة من الاختلالات وكان الأشخاص في وسطه العاطفي يبتعدون عنه بعد أن أصبحوا عاجزين عن قول شيء له، وعاجزين عن لعب أدوار الأولاد المتشاجرين أمام ناظريه تقديراً له، ومتعبين من مظاهر الغيرة التي كان ينظمها...»[1].

مفهوم جديد للشخصية.ـ عبر هذا المفهوم لقوة نظام التفاعلات يرتسم تحديد الشخصية الرائدة كإرادة تنفيذ لنظامه المتميز بالتفاعلات مع الناس. فيستعيد علم النفس الجديد هنا لحسابه أعمال ج .ل. مورينو (1937) الذي كان يحدد الشخصية لمجموعة أدوار مفضلة، يعني كأنظمة متميزة من التفاعلات بين الناس[2]. ولنقدم

(1) A. Mucchielli (1983) Les jeux de rôles, PUF, 1990, P.32
(2) J.-J, Moreno (1937), Les fondements de la sociométrie, PUF, 1954.

مثالاً ناطقاً نستخلصه من الأدب:

هذا كاتب يروي كيف ولماذا تزوج امرأته، حيث كان يشعر بالوحدة قبل التعرف بها، وكان العالم يبدو له رمادياً. وحين تعرف إليها، صار يُظهر أنه «يتكلم إلى آخر» «يَكنُّ له الاعتبار». وبعد فترة من الزمن، صار يروي كيف أهتدى إلى الله. ووجد الكلمات ذاتها ليروي مغامرته. هنا أيضاً أعادته نهاية الوحدة إلى الوجود الأكمل. وهنا أيضاً استعاد العالم ألوانه، وبالتالي صار يمكنه التأمل من جديد، دون أن يشله الضيق. وفي هذين اللقاءين، المغامرة ذاتها، والاكتشاف ذاته. ومع زوجته، الحاجة إلى إعادة اكتشاف دوري لمعنى الحياة بعمق، بشخصية هذا الكاتب. وتعتبر قصة حياته قصة هذا النمط من اللقاءات التي تجعله «يولد من جديد» في أوضاع يبحث عنها بدون وعي بشكل متواصل[1].

عبر هذا المفهوم لـ «التأثير» أو لـ «الأشكال المكررة» للتبادلات يعرض علم النفس الجديد مفهوماً أساسياً للاتصال: مفهوم التماثل الشكلي. وفيه يعتبر البحث عن التماثلات الشكلية في أنظمة التفاعل هاماً.

التماثلات الشكلية لأنظمة التفاعلات.. على عالم النفس الفاضل في منظور علم النفس الجديد أن يسعى إلى إدراك «أشكال» أنظمة التفاعلات. ويجب أن يجري هذا الإدراك على جميع المستويات، وليس على مستوى علم النفس الاجتماعي وحده. ويجب أن يترافق تحديد معالم هذه التماثلات في الأشكال بكفاءة في نقل رمز المعنى المأخوذ من صعيد معين بين الأصعدة الأخرى. لنأخذ مثالاً قدمه لاينغ:[2]

«يشعر إنسان فتى أن حياته في منطقة عدم الفعل. وهو قلق من النزاع بين الشرق والغرب، والحرب الباردة، وتوازن الرعب، وتقنيات الردع. . . والحاجة إلى التعايش. ومهمته إيجاد حل، لكنه يشعر أنه عاجز ومشلول. ولا يقدم شيئاً، لكنه يشعر بالتمزق لمسؤوليته، في دمار يعتبره لا بد منه. وتشبه العناصر البنيوية لاهتماماته (النزاع، الحرب الباردة، الطلاق المؤثر، توازن الرعب، ضرورة التعايش)

---

(1) A. Nemmi, cité in Mucchielli, Les jeux de rôles, «Que sais-je?», PUF, 1990, p. 27.
(2) R. D. Laing, La politique de la famille, Stock, 1972, p. 17-22.

العناصر الموجودة في العلاقات مع أهله ـ لكنه لا يرى علامات التشابه. وهو يردد أن اهتماماته المتعلقة بالوضع في العالم هي ليس فقط مبررة بوقائع موضوعية، بل مستندة إليها بصورة تامة. فالوضع العالمي واقع والألوف من الناس ينتمون إلى عائلات مثل عائلته، وبالتالي لا وجود لأية علاقة بين الأمرين».

تحديد معلم الاتصال المجازي انطلاقاً من تماثلات أنظمة التفاعلات. ـ لقد رأينا ما كان عليه الاتصال المجازي: حيث تم وضع دليل سلوكي من قبل فاعلين لاستبدال المشكلة الواقعية التي يجب معالجتها ولا يستطيعون ذلك. ويتحدد هذا الاتصال المجازي لأن تبادلات الفاعلين حول دليل الانتقال المماثل للتبادلات التي كانت عندهم حول المسألة الأخرى. لنأخذ مثالاً:

«الزوجان أ وب يؤلفان عائلة يسيطر فيها الزوج أ (يأخذ القرارات بصرف المال، وبمكان السكن إلخ. . .). في وقت معين، يظهر عرض عند ب، ويأخذ موقعاً أدنى في العلاقة ويعطي السلطة للزوج أ، الذي يوجه النصح للزوجة ب، حول طريقة التخلص من العرض، ويبدو أكثر تكيفاً وتأهيلاً من ب، غير أن أ لم ينجح في مساعدة ب، على حل مشكلتها. فضلاً عن ذلك، لدى أ جملة أمور للقيام بها لصالح ب، أو على العكس، يفتقر إلى بعض الأمور بسبب شروط من ب. هكذا، فإن العرض يعطي سلطة للزوجة ب على أ. ويكون نظام التفاعل حول عرض ب مماثلاً لنظام التفاعل في القطاعات الأخرى من حياتهما. بكلام آخر، بالتماثل أ و ب يتبادلان التأثير حول عرض ب كما يقومان به تجاه أية قضية أخرى. ويعطي أ توجيهات إلى ب بصدد العرض ويغضب لأن ب لا تتبعها أو لا تقوم بها بشكل صحيح. وتشكو ب من الطلبات غير المناسبة من أ. بهذه الطريقة يتحدث أ و ب عن سيطرة أو عن التعاسة الناشئة لدى ب. وتعبر ب بسلوكها العرضي في آن معاً عن رغبتها في التوقف عن الخضوع والقصور. وإذا صرفت ب النظر عن عرضها، يعود أ و ب للتنافس بشأن ميدان أو معرفة ما إذا كان على أ أن يقرر نفقات المنزل. ولما كانت هذه المسائل غير قابلة للحل، تُظهر الزوجة ب عرضاً آخر وتعود الدورة من جديد»[1].

(1) C. Madane (1981), Stratégies en thérapie familiale, Ed, ESF, 1991, p. 51.

ترسيخ الاستقرار المتجانس النظامي.- إن أحد الاكتشافات الكبرى لعلم النفس الجديد الناشىء عن الملاحظة، هو أن المجموعات والعائلات والمؤسسات. . . «المريضة» هي جماعات خصصت أدواراً ثابتة يبدو أن الأعضاء يرتبطون بعمق بها من أجل استمراريتها.

فهذا دور عائلة فُصامية، كل عضو فيها يهدد الآخر بتفضيل منافس آخر عليه.

«يظهر فرانشي الأب في جلسة اهتماماً جنسياً مقنَّعاً حيال المريض المعني (ابنته الكبرى) التي من جهتها، تُظهر له الكره والاحتقار، بينما تُظهر السيدة فرانشي الأم لكل منهما حسداً ثقيلاً، في حين تُظهر حناناً خاصاً للفتاة الأخرى التي من جهتها تُظهر أن هذا الحنان ليس متبادلاً.

«إن دوام هذا الدور، يقول سلڤيني پالاتسولي، يرتكز على الغموض اللاحق، ولا يمكن أن يوجد فيه غالبون ولا مغلوبون، وإلا ينتهي الدور. وفي الواقع إذا أظهرت المريضة المعنية لأبيها حباً موازياً بدلاً من الكره والاحتقار، فإن تحالفاً خفياً يرى النور، وينتهي الدور حتماً. ونفترض أن هذه المريضة أظهرت حبّاً لأبيها، فإن إظهار التحالف يرغم الأخت الأخرى على القيام بمثل ذلك تجاه الأم، وعلى التحالف معها بشكل مكشوف. في هذه الحال، يصبح التناظر مكشوفاً، ويصبح الصراع بين الطرفين معلناً. وعلى العكس يجري إنقاذ ترسيخ الثوابت الوظيفية للجماعة بدوام الدور ذاته. ويكون الدور والاستقرار المتجانس مترادفين، وتصبح التصنعات والغموض والمناورات أساسية لاستمرار الوضع القائم»[1].

ويروى سيلڤيني پالاتسولي كيف تقاوم العائلات وتبتكر حيلاً للهروب من الشفاء الذي يعرض عليها عبر تدخلات المعالجين النفسانيين وبالطبع فإن تحول بطاقة «المريض» إلى عضو آخر «سليم» يهز ترسيخ الاستقرار المتجانس النظامي. وتقوم العائلة حينذاك بمفاعيل رجعية دفاعية عن الوضع القائم، وتتصل هاتفياً مذعورة بصدد تفاقمات صحيحة أو مفترضة للمريض المعني، كأنها تقول: «كفى مع هذه القصة،

(1) M. Selvini Palazzoli, L. Boscolo. G. Cecchin, G. Prata (1975), Paradoxe et contre-paradoxe, Ed. ESF, 1990.

لنكن واضحين، المريض هو هو»، وتحاول إقصاء كل ما جرى سابقاً: حيث تعرض بعناية أعراض المريض المعني كأنما يجري اللقاء لأول مرة، وتدخل مشكلات كاذبة من الإرباك (. . . اليوم، يجب إقرار برنامج العطلات. . .» إلخ)، وتستطيع القيام بالإقصاء الكامل الذي يشكله فقدان الذاكرة لكل ما جرى سابقاً: «. . . أي تأثير أحدثته ملاحظاتك عن الجلسة السابقة؟. . . بل أية ملاحظات؟. . . إلهي، لقد قيل فيها الكثير من الأمور. . .».

٧ ـ التأطير أو تحديد النظام المناسب

تنطلق بنائية مدرسة پالوألتو من مبادىء الترقيم والتأطير. و «تبقى ظاهرة معينة غير مفهومة طالما بقي حقل الملاحظة غير واسع بشكل كاف لكي يدخل فيه السياق الذي تحدث فيه الظاهرة المذكورة. ويؤدي عدم القدرة على إدراك تعقيد العلاقات بين واقعة وإطار تدخل فيه، وبين جسم ووسطه إلى أن يجد نفسه، الملاحظ لشيء ما «سري» مدفوعاً لكي يضفي على موضوع الدراسة خصائص ربما لا تكون موجودة فيه. . .»[1]. كما يقول واتزلويك، رئيس رتل هذه المدرسة، لتأكيد هذه الفكرة: «بالتركيز على السلوك الوحيد لفرد معين، يمكن اعتباره فريقاً، بينما لا يظهر هذا السلوك ذاته في سياق التفاعلات مع الأعضاء الآخرين لمجموعته، مرضياً بل «تكيفاً»[2]. فيقدم بذلك مثالاً لزوجة تحتاج إلى الكثير من المعلومات لمعرفة أين هي مع زوجها من ذلك، بينما لا يحتاج زوجها إلا إلى القليل من المعلومات. وإذا استشارت هذه المرأة طبيباً نفسانياً، يمكن أن يظهر سلوكها كأنها توافق على جميع معايير الغيرة «المرضية» في حين أنه ليس إلا نتيجة للتفاعل: حيث تريد المرأة أن تعرف أكثر، وتسعى أكثر في هذا الاتجاه، ولديها أقل مما تريد، لأن موقفها يطلق موقفاً انطوائياً لدى الزوج. ويكون سلوكها بالتالي غير قابل للإدراك خارج تفاعلها مع زوجها. ويكون الانخداع تاماً، إذا درس سلوكها بطريقة تقليدية، بعزله ومقارنته مع ميزات شخصيتها. ويجب بالتالي «تأطيره» ووضعه في سياق معين، هو هنا سياق تفاعلي.

التأطير، لدى واتزلويك، هو إذاً إعادة تحديد للوضع أو انتقال إلى ما وراء

(1) P. Watzlawick et al., Une logique de la communication, Seuil, 1972, P. 15.
(2) P. Watzlawick (sous la dir.) Sur l'interaction, Seuil, 1981, p. 15.

رؤية الوضع من أجل تغيير معنى العلاقات بين الفاعلين. ويعرض واتزلويك تقنيات مختلفة لإعادة التأطير، فلنتفحص التقنية التي تقوم على تحضير تحليل للوضع انطلاقاً من نظرة مختلفة بصورة جذرية عن نظرة الفاعلين السجناء لتفسيرها[1].

أُحضر إلينا رجل في الخامسة والعشرين من العمر من قبل أمه، وكان قد أجري عليه التشخيص لمرض الفصام، وكان قد أمضى معظم السنوات العشر الأخيرة في مستشفيات الطب النفساني أو المعالجة الطبية النفسانية الكثيفة، وكانت أمه تعتقد أنه على وشك الدخول في مرحلة عُصابية جديدة. في هذا الوقت، توفَّر له العيش في حياة هامشية في غرفة صغيرة، وتابع دراسة مقررين جامعيين كان على وشك الرسوب فيهما: وكان متصنعاً وغالباً ما كان يقوم بالقطع «المهذب» للجلسات. وبرأيه، كانت المشكلة تكمن في خلاف طويل الأمد بينه وبين والديه، في موضوع دعمه المالي. ولم يكن يحب أن يدفع والداه أجرة سكنه وحساباته الأخرى «كما لو كنت طفلاً». كان يريد أن يحصل منهما على مرتب شهري كافٍ يستخدمه لتسوية حساباته بنفسه. وكان والداه من جهتهما، يعتبران أن ماضيه وسلوكه الحاضر يبينان أنه لم يكن قادراً على أن يأخذ هذه المسؤوليات على عاتقه، وأنه يستخدم المال لأي شيء. فكانا يفضلان بالتالي إعطاءه شيئاً يشح كل أسبوع، لكنهما كانا يتظاهران بتغيير المبلغ، حسب درجة «التعقل» أو «الجنون» التي كان يظهرها. هذا الشرط لم يكن وارداً في نص بوضوح، غير أنه، كما لم يكن الابن يعبر مباشرة عن غضبه حيال هذا الموضوع، بل ينطوي على ذاته في نوع من الدور العصابي المضطرب، كانت أمه أكثر من أبيه تعتبره دليلاً إضافياً على عجزه عن توجيه حياته الخاصة. وكانت تخشى أن يصبح استشفاء جديد ومكلف أمراً لا بد منه. وفي حضور أمه، أشرنا بالملاحظة إلى الإنسان الفتى لأنه كان يشعر أنه مسحوق من قبل والديه، وأن له كل الحق بالدفاع عن نفسه بالتهديد بإحداث نفقات أكبر في مرحلة عصابية جديدة. ويقدم المعالج النفساني حينذاك إيحاءات ملموسة على الطريقة التي عليه التصرف بموجبها لدفعه إلى التنبؤ بالكارثة الوشيكة الوقوع. وكانت هذه الآليات تصف في الواقع الطريقة الغريبة التي كان يتصرف بها».

(1) P. Watzlawick, op. cit 1972, p. 147.

كان هذا التفسير المقدم من قبل الطبيب النفساني يستنتج أن الابن ليس مريضاً، بل إنه يقوم بذلك ليشغل بال أهله. ويتخذ الطبيب النفساني موقعا ما وراء نظرة تغير اتجاه الوضع بصورة تامة. وأظهر هذا التدخل، يقول واتزلويك، للابن أن سلوكه كان شيئاً يستطيع إخضاعه لصالحه ويسمح، في الوقت ذاته، للأم بقدر أقل من الخوف من هذا السلوك. وفي الواقع، غضبت الأم في شجارها الأول، على الابن قائلة له إنها ملّت من أن تكون سائقة لسيارته ومن أن تهتم بشؤونه، وثبتت له مبلغاً شهرياً عليه أن يتدبر أمره به. . وانتهى إلى توفير ما يكفي لشراء سيارة، وأصبح هكذا مستقلاً أكثر فأكثر. . .

وطوّر واتزلويك نتائج نظرية الأنماط المنطقية المطبقة على هذا المفهوم من التأطير، ويذكر خاصة، أن سياقاً لا يمكنه تحديد ما وراء السياق. يعني أنه لا يمكن تفسير ما يجري في سياق معين بآليات مأخوذة عن مستوى أدنى. ولفهم ما يجري في عائلة معينة، يكون من الخطأ منطقياً الاستشهاد بطبائع الأفراد، كما يبدو الميل إلى القيام بذلك بشكل تلقائي، هذا يعني تطبيق سلوك معين ينطلق من عناصره المأخوذة بشكل منعزل. ويجب إيجاد التفسيرات في ما وراء السياق، يعني في ميزات النظام العلائقي بأكمله. ويجب وضع نفسه في مستوى أعلى وليس في مستوى أدنى.

وفكرة «التأطير» هي كذلك أساسية في جميع الدراسات حول تغيير السلوك. ولتعديل سلوك معين، ينبغي بشكل أساسي تعديل النظام الذي يتم فيه السلوك. لكن هذا النظام غالباً ما يكون خارج المتناول، لأنه يتعلق عامة بالوسط العائلي الذي عاش فيه الشخص طفولته. ويجدر في الواقع أن نعتبر أنه يوجد في أول الأمر بصفة واقع ذاتي، وأن علينا أن نطور الإدراك لدى الفاعل. هكذا، فإن أحد أهداف التغيير يكمن في تغيير السياق (ما يغير اتجاه السلوك المطعون فيه بصورة أوتوماتية) أو في تعديل الإدراك لدى فاعل السياق: ذلك هو أساس تقنية «إعادة التأطير».

الملاحظة الإجمالية وإعادة بناء النظام.ـ لقد صاغ بيردويتل (Birdwihtell) مجازاً يترجم جيداً ما يجب أن تكون عليه الملاحظة في علم النفس الجديد. ولا يمكن تحليل أفعال فرد إلا في السياق الذي تجري فيه. وكان بيردويتل يعلم تلاميذه متابعة مباراة ما دون النظر أبداً إلى الكرة، ومعرفة أين توجد عبر مراقبة اللاعبين

وحركاتهم[1]. فكان يجب إذاً أن نتعلم عدم تركيز انتباهنا على الظاهرة التي نريد تحليلها بأي ثمن وأن نتعلم النظر حول المكان لإدراك مجموع الأشخاص المشتركين وتنوعات أفعالهم. ويذكرنا لاينغ أنه حين تركز المراقبة على عنصر واحد لنظام معين، يمكن «رؤية ما يجري بقدر ما يرى عبر نظارة سوداء في غرفة مظلمة».

لإدراك نظام من التفاعل، يجب إذاً إعادة تشكيل الوضع الكلي، وأعمال الفاعلين في هذا الوضع بالتكامل خاصة بين العناصر التاريخية للوضع.

المراقبة «الفورية» والبحث عن «كيف».. إن مدرسة پالو ألتو هي التي شددت على ضرورة مراقبة أشكال السلوك القائمة لفهم مرضية الفرد. ويرى واتزلويك في الواقع أن «السلوك يتحدد دون شك، جزئياً على الأقل، بالتجربة السابقة، لكنه يعرف كم من المغامرة في البحث عن أسبابه في الماضي... فالذاكرة تقوم بشكل أساسي على تجارب ذاتية... غير أن كل ما يقوله أ لـ ب عن ماضيه شديد الارتباط بالعلاقة الجارية بين أ و ب ويتحدد بها بالمقابل، إذا دُرست بصورة مباشرة علاقة فرد بأعضاء محيطه... ويمكن الوصول إلى التحقق من نماذج العلاقة التي كانت لها قيمة تشخيص تسمح بتحديد استراتيجية تدخل علاجي ملائمة قدر الإمكان. هذا الخط من المقاربة هو بالتالي البحث عن نموذج فوري أكثر مما هو البحث عن معنى رمزي للبواعث أو الأسباب المستخلصة من الماضي... ويدفع العرض معناه إذا استبدل في سياق التفاعل الجاري بين فرد ووسطه البشري؛ ويظهر العرض كأنه حشو، كقاعدة لهذا «الدور» الخاص الذي يميز تفاعلهما وليس كنتيجة لنزاع بين تفاعل القوى النفسانية المفترضة»[2]. كما يقول ويكلاند إن أفق التفاعل الفعلي «جديد... ويتفحص الأحداث والمشكلات بتعابير سلوكية بين أفراد نظام من العلاقات الاجتماعية... ويوجه تقصيه عن الوضع حول الـ «ماذا» والـ «كيف» (وليس حول لماذا أو من)... ويهتم بالأصول والغايات اللاحقة أقل مما يهتم بالوضع القائم وبالطريقة التي يدوم بواسطتها ويتغير بها»[3].

---

(1) Rapporté in Y. Winkin, La nouvelle communication, Seuil, 1981.
(2) P. Watzlawick, Une logique de la communication, Seuil, 1972, p. 40-41.
(3) J. Weakland (1977), Somatique familiale: une marge négligée, in P. Watzlawick et J. Weakland (sous la dir. de), Sur l'interaction, Seuil, 1981, p. 456.

وتتقارب، لدى واتزلويك، مراقبة نظام ما مع مراقبة جزء من أحجار الشطرنج. فينبغي تمييز الحشو في التفاعلات لصياغة «قواعد الدور». غير أنه قلما تهم معرفة متى ولماذا تتشكل التصرفات في الماضي، لأن الماضي هو حاضر كذلك في كل ما يجري هنا والآن.

البحث في «كيفية» الاضطرابات الحالية لأشكال السلوك. ـ «بدل أن يطرح سؤال لماذا (لماذا يعني على أساس أية أسباب محددة ناشئة في الماضي، يتصرف فرد اليوم بهذه الطريقة اللاعقلانية أو تلك؟») وطرح باتيزون السؤال التالي: «أية تأثيرات تغير أسبابها الخاصة؟» أو كذلك: «ماذا يجب أن يكون السياق العلائقي الحالي الذي يشكل السلوك المعني ردة فعل متكيفة ورشيدة، بالأحرى ردة الفعل الوحيدة الممكنة؟». بالنسبة إلى علم النفس الجديد، يجب أن يستبدل البحث عن الأسباب بالبحث عن آلية الدور وقواعده. لأجل ذلك، يجب اختيار إطار مراقبة سديدة، يعني واسعة بشكل كافٍ وطرح السؤال الأساسي: «كيف يجري ذلك؟». ومع هذا الشكل من مراقبة الوقائع البشرية، لا حاجة لوضع فرضيات نظرية حول الفرد، بل حول طبيعة الاتصال الذي يقوم به فقط. وحسب مدرسة پالو ألتو يعود كل شيء إلى دراسة وضع التفاعل. فيتعلق الأمر بنوع من الاتجاه الوضعي الصافي. ويؤكد جاكسون أن «الأخص في الأفق التفاعلي هو دعم اعتبار الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي نتائج الاتصال. . . فيمكن بالتالي النظر في الأعراض، والدفاعات وبنية الطباع والشخصية لتعابير تصف تفاعلات نموذجية للفرد رداً على سياق تفاعلي خاص»[1].

ويتعلق الأمر هنا، بتغير جذري بالنسبة إلى نظرة التحليل النفساني، ويوجه اللوم بالطبع إلى علم النفس الجديد بإزالة الفاعل ذاته، مع حياته العاطفية كلها.

VI ـ «ألعاب» التفاعلات وقواعدها

أدلر و «نمط الحياة». ـ لا شك في أن أدلر هو المرجع لمفهوم «لعبة» التفاعلات. ولا بد أن نطرح هنا مفهومه عن «نمط الحياة». فحسب أدلر، إن الحاجة الأولية لكل إنسان هي تعويض شعوره بالنقص المعاش بحدة في حالة الضعف في

(1) D. Jackson, in Watzlawick, Sur l'interaction, Seuil, 1981. p. 35.

الطفولة الأولى. وكل إنسان يبحث عن رفعة معينة، تعوض الشعور الأصلي بالنقص. وتتيح له تجاربه والفرص المصادفة وكفاءاته وأوضاع حياته، إيجاد الأرضية التي يمارس عليها رفعته (حتى الوهمية) وإبراز أفعاله النموذجية الفعالة التي سيلعبها بثبات تحت أشكال مختلفة[1].

الحوارات التصالحية.. يقول إ .بيرن إن التحليل التصالحي يهتم بتحليل التصالحات، أي حالات التوافق بين الحافز والاستجابة، في التبادلات الاجتماعية[2]. ويسعى إلى كشف التنظيم الثابت، ونوع التعاقب وبرمجة هذا النمط من السلسلة. فعلى السطح، يمكن للتبادلات بين شخصين، يتفاعلان معاً في الغالب، أن تبدو عرضية، «لكن تفحصاً متنبهاً يبيّن أنها تميل إلى التوافق مع رسوم بيانية محددة. . .». وتدور الحياة الزوجية والعائلية في بعض الأحيان، سنة بعد سنة، حول تغيرات في اللعبة ذاتها. ويقال «لعبة» ليس لسبب وجه التفاعل اللعبي، بل لأن تحليل مجموعة واسعة من التبادلات تُظهر «نظاماً من التفاعلات» تظهر فيه التبادلات المتتالية والمحددة بقواعد معينة. وحينذاك يصبح نظام التفاعلات المحددة معالمه هكذا، لعبة بقواعد تسمح بصدمات يجري القيام بها. وعلى هذا الأساس يحلل واتزلويك المسرحية المسماة، من يخاف من فيرجينيا وولف؟ مبيناً أن المسرحية كلها ليست إلا تكراراً لـ «سيناريو» أساسي بين البطلين، يستند إلى ارتقاء تناظري[3].

فهذه مثلاً، إحدى «الألعاب» الأولى التي حددها بيرن: لعبة الحياة الزوجية في عبارة «لولاك»[4].

السيد لوبلان: «إبقي في المنزل واعتني بتدبيره».

السيدة لوبلان: «لولاك لاستطعت الخروج وتسليت».

السيد لوبلان: إذهبي بحثاً عن السيارة التي أودعتها للتصليح».

---

(1) A. Adler (1927), Pratique et théorie de la psychologie individuelle comparée, Payot, 1961.
(2) E. Berne, Analyse transactionnelle et psychothérapie, Payot, 1971
(3) P. Watzlawick, J. Helmick-Beavin, D. Jackson, Une logique de la communication, Seuil, 1972.
(4) E. Berne, Des jeux et des hommes, Stock, 1975.

السيدة لوبلان: «آه، ربما أستطيع الذهاب مع صديقتي إلى السينما..».

إن بنية العلاقة بسيطة: فيها توجيه ورد بالاحتجاج أو القبول. وعلى أساس هذه الخطوط العامة، يمكن تصور عدد من الحوارات. وإذا جرت لعبة دون توقف، يقول بيرن، يعني أنها تجلب المكاسب للاعبيها. للمرأة، القدرة على اتهام زوجها، والظهور بأنها قادرة على القيام بأمور أخرى (لعبة اجتماعية بـ «الولاء») والقدرة على الثأر من الحياة الجنسية (مراقبتها) إلخ.. وللرجل، تجنب الحميمية الجنسية دون فقدان الاعتبار للذات، مثيراً للرفض وحرية القيام بما يريد، والمنفعة الاجتماعية في القدرة على القيام باللعبة: «النساء هن اللغز». وتكون اللعبة بالتالي «نظاماً معاداً من مساومات غالباً ما تتكرر، وقريبة من المعقول ظاهرياً، وذات حوافز خفية». هكذا لم يعد يدرس السلوك في ذاته، بل ضمن جملة تبادلات، ويصبح «صدمة» تستجيب لـ «قواعد» في «لعبة». ولكل فاعل غاية، ويتجه كل واحد لبلوغ غاياته الخاصة.

قواعد اللعبة وقوانين تكوينها.. إن ولادة قواعد العلاقة هي معطى أولي لتكوين أنظمة التفاعل. كما أن مدرسة پالو ألتو هي التي أوضحت كيف توضع القواعد السائدة في وضع التفاعلات. «إن أفراداً يستطيعون خلال تبادلاتهم الأولى، الالتزام بأدوار سلوكية غير مألوفة التنوع يصلون دائماً، بعد فترة معينة من الزمن، إلى اقتصاد جدي يتعلق بالمواضيع التي يمكن مناقشتها، وكيف يجب أن تكون تلك المناقشة». ويبدو إذاً، يقول واتزلويك، أن الفاعلين قد استبعدوا عناصر مجموعة التفاعلات عن الاتفاق المشترك، وقرروا ألا يجادلوا أبداً في موضوعها[1]. وأقاموا «نظاماً» تحكمه قاعدة معينة. ومنذ عام 1965 كان د. جاكسون هو الذي يبين، بعد دراسة العائلة والتفاعلات داخلها، أن: «العائلة نظام تحكمه قواعد معينة. ويتصرف بعض أعضائها حيال البعض الآخر بطريقة تكرارية ومنظمة، ويمكن عزل هذا النمط من البنيان من أشكال السلوك كمبدأ موجه للحياة العائلية». وما قاله جاكسون عن العائلة يمكن أن يقال عن كل مجموعة أو كل تنظيم. ويبين جاكسون كيف يتكوّن معيار قبول أو سلوك متبادل بين ثنائي زوجي. وإذا قام أحدهما بأمر ما ولم يجب الآخر بشيء أو

(1) P. Watzlawick, J. Helmic, J. Beavin, D. Jackson, Une logique de la communication, Seuil, 1972, p. 134.

يقبل هذا الأمر، تكون القاعدة المحتواة في السلوك مقبولة وتصبح «قاعدة تفاعل» بين طرفي الثنائي الزوجي[1]. ويرى فيريرا في ذلك أن كل شيء يتم كأنه يوجد في العائلات عدد من المعتقدات المنتظمة والمشتركة بين الجميع، ومن ينظم التبادلات شبه الطقسية بين أفراد العائلة[2]. ويسمى فيريرا هذه المجموعة من المعتقدات، تخيلات عائلية. وتحكم هذه التخيلات الأدوار المتبادلة في عائلة معينة، وطبيعة تبادلاتها. والقاعدة، حسب جاكسون، هي: «استنتاج وتجريد» أو بدقة أكبر مجاز صنعه المراقب لتبيان الحشو الملاحظ[3]. هكذا، فالقاعدة استنتاج، ولا يعرف إذا كانت توجد في اتجاه معين «من الواقع». هي نوع من التوافق، ويمكن القول إن «كل شيء يمر كما لو أنه، كان يوجد. وتسمح بتبيان وجود الظاهرات الملاحظة.

ويكون الوجود المقرر للتكوين النفساني للأشكال الطقسية للتفاعل هاماً. وغالباً ما يهمله المخصصون في علم النفس الجديد، في أعمالهم العلاجية التي لا تحتاج إلى إعادة بناء تاريخي لتكونْ فعالة. غير أنها ترسخ صلةً رئيسية مع الماضي النفساني وميدان التفاعل النفساني. ذلك ما يسمح بالقول، بوجود مرحلة خاصة للطفولة ملائمة للتشرب المرضي للأوامر الأهلية المفارقة، وأن علم النفس الجديد ليس اتجاهاً سلوكياً بالدقة، وهو لا يرفض بصورة كلية التاريخ الفردي للشخص وتجاربه المميزة.

تحليل الألعاب.ـ تحليل اللعبة مع مغزاها النفساني.

1) موضوعها، أو الوصف العام للعبة مع مغزاها النفساني.

2) الهدف العام للعبة بتعابير الحوافز العامة (اطمأن، قاوم. . .).

3) الأدوار الآيلة إلى مختلف الشركاء.

4) «الصدمات» تمثل الحركات التي تسمح للعبة بالتقدم نحو هدفها.

---

(1) D. Jackson, L'étude de la famille, p. 32 in Watzlawick et Weakland, Sur l'interaction, Seuil, 1981.
(2) A. J. Ferreira, Les mythes familiaux, in Watzlawick et Weakland, Sur l'interaction, Seuil. 1981, p. 85.
(3) D. Jackson, loc cit, 1981, p. 35.

5) الإيجابيات الوجودية التي توفرها اللعبة (تأييد موقع اللاعب، بناء العلاقات).

تحليل الظهور وتفسير اللعب. ـ لتوضيح اللعب، يجب التحرر من الشرط اللغوي الذي تكون بموجبه الصفة المعطاة لشخص معين، هي صفة مرتبطة به، هذا يعني أنه إذا ظهر شخص معين حزيناً، نقول على الفور إنـ «ه» حزين، ونحاول بعد ذلك فهم لماذا. غير أننا إذا حولنا شكل «الهوية» إلى شكل «ظهور» (ما يظهره شخص أنه حزين) حينذاك نطرح أسئلة أخرى (لماذا تصبح، لأي هدف يفعل ذلك. . .).

لنأخذ مثالاً يبين لنا فيه سلڤيني پالاتسولي كيف أن ترك فعل «الهوية» واستبداله بفعل «يبين» يوضح لعبة عائلية[1].

«يبدي فرانشي الأب اهتماماً شهوانياً مقنعاً بالمريضة المعنية (الابنة الكبرى)، وهي من جهتها، تبدي من الكره والاحتقار بينما تبدي السيدة فرانشي لكل منهما غيرة ثقيلة، كما تبدي حناناً خاصاً للفتاة الأخرى التي من جهتها تبيِّن لها أنها ليست متبادلة».

هكذا صيغت على أساس الملاحظة الملموسة، وظهرت لعبة الفاعلين بوضوح. ويهدد كل فرد الآخر بمنافس داخلي في المجموعة، والمنافسون المفترضون من جهتهم، يقومون بهجومات مضادة أخرى وجوهرية في اللعبة.

اللعب دون نهاية. ـ تُظهر الملاحظة السريرية أن «العائلات» المرضية تبدو عاجزة عن إيجاد أشكال سلوك جديدة تحطم الحلقات المفرغة. كما هي عاجزة عن ابتكار قواعد جديدة للسلوك. ويكون نظام تفاعلاتها محكوماً بالتكرار على الإطلاق ببعض المناهج السلوكية المتوفرة فيه، وبالتفاعل مع وضع متأزم أكثر فأكثر بالحصيلة الأكبر من الشيء ذاته». ولا يتوصل إلى إيجاد حل، ولا إلى إدراك الواقع بسبب أن هذا الحل لا يمكن إيجاده بين أشكال السلوك المتوفرة، ويدعى هذا، في نظرية

(1) M. Selvini Palazzoli, L. Boscolo, G. Cecchin, G. Prata (1975), Paradoxe et contre-paradoxe, Ed. ESF, 1990, p. 32.

الاتصال، لعبة دون نهاية: حيث يتبع النظام قواعد بصفته نظاماً، لكنه يفتقر إلى قواعد لتغييرها، يعني إلى ما وراء القواعد.

VII ـ الإتصال المفارق

إن مفهوم الاتصال المفارق هام جداً، لأنه في صلب مفهوم العلاقة المرضية والتدخل العلاجي. وتكون إمكانية الاتصال المفارقة ملازمة لطبيعة الاتصال البشري. وفي الواقع، إنه يتم باللغة والمواقف في آن معاً (من الرقمي والمماثل). وبإمكان هذين الطرفين أن ينفصلا بسهولة ويدخلا في التناقض. لقد رأينا، مثالاً للانفصال الممكن حين استحضرنا شخصاً كان يقول: «كم أنا مسرور برؤيتك»، في حين كان وجهه «مغموماً». كان كل جسمه يظهر حركة تراجع. فالاتصال بالتالي مفارق حين ينطوي على رسالتين تتصفان بشكل تعارضي (غالباً ما يذكر، على الصعيد اللفظي: «ليكن تلقائياً» أو «أريد أن تكون الرئيس»).

الإكراه المزدوج.ـ لقد استخدمت ملاحظة التبادلات بين العائلة وولدها الفُصامي، لتحولها إلى أشكال قطعية لهذا المرجع الأساسي، لعلم النفس الجديد الذي هو «الإكراه المزدوج». وبرهن باتيزون، في الواقع، أن اتصال مريض الفصام كان رداً على الأوامر المتناقضة التي تلقاها دائماً من أهله. وكان كل فرد منهم قد طلب تعابير عاطفية متناقضة مع متطلبات الآخر (إذا قمت بهذا الأمر، لن أحبك أبداً ـ مطلب القريب الثاني). ففي حالة القريب الواحد، كانت أشكال السلوك الشفهية تقتضي أمراً (يجب أن تتصرف كشخص كبير») وكانت المواقف تعاقب كل إرادة في الحكم الذاتي (هذا يدفع إلى القول: «يجب البقاء صغيراً»). ويكون سلوك الفصامي حينذاك شكلاً منطقياً للتعبير عن التناقض المنطقي للأوامر المتلقاة، لأن سلوكه شكل للاتصال بأنه لا يمكنه الاتصال (مهما جرى فهو متهم). ويكون الوضع الذي يشكل «الفصام» وضعاً من الأكراه المفارق. ويسجن نظام الإكراه المتباعد الفرد، ومهما جرى يخرج منه في وضع سيء.

وقد رأينا أن حالة عقدة أوديپ بالنسبة إلى التحليل النفساني هامة لأن فيها يمكن للدوافع أن تتعقد بشكل يصيب حياة الراشد. وحاول علم النفس الجديد

تحديد معالم وضع أساسي للطفولة الملائمة لحالات الإكراه المزدوج بين الولد ومحيطه الاجتماعي. وحددت معالم مرحلة تدعى «انتقالية» حيث تكون المسألة الوجودية للولد هي الانتقال من وضع «الارتباط الطفولي» الطبيعي إلى وضع آخر من الارتباط يدعى «الارتباط الناضج». في هذه المرحلة، يمكن للمحيط والعائلة والأب أو الأم ألا يتصرفوا بمهارة ويحرروا رسائل مفارقة تعرض نفسها بشكل معين وتغير بشكل نهائي العلاقات التي يحاول الولد، بعد بلوغ سن الرشد، أن يقيمها في محيطه[1].

وصف العرض. ـ إنه وسيلة علاجية تقوم على الطلب من المريض التبني الطوعي لسلوك يوصَف بأنه دلالة ملموسة على مرضه. في هذا يخلق المعالج وضعاً مفارقاً. ويدعو المريض للتأثير على سلوك «مريض»، أي أنه يتملص منه بشكل أساسي. فإذا توصل المريض إلى اتباع توجيه عالم النفس، يقدم الدليل على أنه يستطيع مراقبة سلوكه، وأن هذا السلوك لا يطلب منه في الحقيقة. ويمكن القيام بوصف للعرض بالقول للصبي إنه على حق في القيام بما يقوم به (تفاعل الثاني). لأن ذلك بالنسبة إليه الطريقة الوحيدة للسماح لأهله بتلبية حاجاتهم للاهتمام به كطفل صغير (إعادة تأطير الوضع، وفهم جديد لأشكال السلوك) بالطلب فيه أن يكون أكثر تطلباً حيال أهله، وأن يظهر كذلك أكثر ارتباطا بهم. بهذا الأمر، يكون المريض قد وقع في وضع مفارق.

وكما رأينا، يقوم وصف السلوك على المفهوم «البنائي» لرؤية العالم. وفي الواقع، يحاول هذا «الوصف للسلوك» دفع الشخص إلى الفعل «كما لو أنه» يعيش ويتصرف في واقع مختلف عن الواقع الذي بناه بنفسه. وبتصرفه «كما لو أن» مشكلة كانت شيئاً آخر، يساهم، ببناء واقع آخر وبالتالي ليمتلك سلوكاً آخر. و «تفسر البساطة المبتذلة في الغالب لوصفات السلوك الطابع المدهش ظاهرياً، والسحري تقريباً، للتأثيرات التي تحدثها. ويتعلق ذلك بأشكال التصرف التي أمكن للأشخاص تبنيها منذ زمن طويل؛ مما لم يقوموا بها أبداً، لأن هذه التصرفات، في

(1) C. E. Sluzki, E. Veron (1971), La double Contrainte comme situation pathogène universelle, in Watzlawick, Sur l'interaction, Seuil, 1981. p. 308-322.

الواقع الذي أقاموه، كانت خالية من المعنى ولم يكن لها بالنتيجة أي مبرر للوجود»[1]. ويؤكد واتزلويك، رغم هذا المفهوم للمعالجة «العرضية» (للعرض وحده) للمرض لا تتفق مع النموذج النظري التحليلي النفساني.

لقد أُخذ على مدرسة پالو ألتو أنها لم تَشْفِ شيئاً. وأنها لم تفعل إلا نقل «العرض» من فرد إلى «نظام» بتغيير العلاقات داخل النظام. ويقوم هذا المأخذ على واقع أن المعالجة لا تطال مسألة «لماذا» كان الشخص مريضاً. وقد رأينا أن جواب علم النفس الجديد هو في أنه كان هناك «شفاء» (رغم أن التعبير غير متوافق) لأنه حصل تغير سلوكي ترافق مع إعادة بناء لتصور مجموعة علاقات يوجد فيها الشخص. حينذاك يُقيّم الشفاء بمعايير عملية وليس انطلاقاً من الرضى العقلي لفهم الأسباب النفسانية للمرض. ولبلوغ هذا «الشفاء» تُبيّن الحياة العملية أنه ليس من الضروري القيام بالانعطاف بحثاً عن جواب لهذه الـ «لماذا» للمرض.

VIII ـ خلاصة

بعد هذا الاستعراض لمعالم المفاهيم الأساسية لعلم النفس الجديد، لا يمكن إلا أن يستحوذ علينا اختلافها الجذري عن معالم مفاهيم التحليل النفساني. وفي الواقع، إن هاتين المجموعتين القياسيتين تحددان الميادين العلمية المختلفة كلياً. وتتجدد مواقعها، حسب كون Kuhn في «وجهات نظر غير ذات قياس مشترك»[2] وباستخدام معالم مفاهيم التحليل النفساني، يرى عالم النفس الأوضاع أو الوقائع بشكل معين. وتكون المفردات التي يستعملها كجزء مشترك مع آخرين من علماء النفس، لكنه وهؤلاء الآخرين لا يرجعون إلى التجارب ذاتها والنماذج ذاتها. . . ويكون الاتصال بينهم صعباً لا محالة.

(1) P. Watzlawick, op. cit, Seuil 1981, p.80.
(2) T. S. Kuhn (1962), La structure des révolutions scientifiques, Flammarion, 1972, p. 236.

الفصل الثاني

تطبيقات علم النفس الجديد

تخص تطبيقات علم النفس الجديد علم النفس المرضي بشكل أساسي. فلا نجد، كما هو الحال مع التحليل النفساني، تطبيقاً يخص جميع ميادين الحياة، وأشكال السلوك الجماعية، والآداب والفنون، وخاصة، جميع تحليلات النصوص والروايات والأعمال الفنية والمشكلات الاجتماعية أو ترتكز مداخلات علم النفس الجديد على مفهوم جديد للمرض الذي عرضناه جزئياً فيما سبق.

I ـ مفهوم جديد للمرض

لقد رأينا، في علم النفس الجديد، أنه لم يعد ممكناً حقاً التحدث عن «المرض». واختفى المفهوم ذاته للمرض الذهني (الداخل النفساني المرتبط بـ «الشخصية»). وتوجد «أعراض بيّنة» وأشكال سلوك ذات معنى في سياق ما ومجموعة علاقات تدخل كل فرد. ويكون السلوك المرضي عرضاً لنظام مضطرب من العلاقات وليس من الأفراد المرضى، بل إن هؤلاء يقومون بتصرفات مضطربة تبعاً لنظام علاقات طبعوا عليها[1]. وفضلاً عن ذلك، فإن ظهور سلوك مرضي، وهو شأن أساسي، لدى فرد عضو في مجموعة يجب أن يعتبر وسيلة مستخدمة من قبل هذا الفرد لإيصال شيء ما إلى شخص معين. فلم يعد المرض مشكلة دوافع مكبوتة في حيز معين من الحياة النفسية، إنه اتصال مماثل لموضوع ألم نفساني يفوق الوصف «بشكل طبيعي» وموجه من فرد في مجموعة إلى الأعضاء الآخرين. وفي

(1) P. Watzlawick, Les cheveux du baron de Muchhausen, Seuil, 1991. p. 18.

هذا يقول هالي: «من وجهة النظر الاتصالية، يُظهر العرض تفككاً بين أول مستوى من الرسالة ومستوى ما وراء الاتصال. ويقوم المريض بشيء مبالغ فيه أو يتجنب القيام بذلك، مع الإشارة إلى أنه يقوم به لأنه لا يستطيع الامتناع عنه»[1].

II ـ مفهوم جديد للتدخل العلاجي

نظرية جديدة للتغير. ـ إذا كان الكائن يوجد بالتفاعلات، فإن تغيرات منظومة العمليات لا بد أن تغير الكائن. وتسمح مساهمات مدرسة پالو ألتو برؤية مسائل التغير بصورة تامة. وعدم التغير هو استمرار نظام التفاعلات ذاته الذي يُبقي على التعاريف ذاتها للكائنات والأشياء. وبصورة معكوسة، إن التغير في شبكة التفاعلات وبالتالي في جميع العوامل والتدخلات التي تجعل هذا التغير ممكناً. وحين تكون شخصية معينة سجينة دور ما، يقال أنها «محاصرة»، كذلك، بالنسبة إلى تنظيم أو جماعة، يقول كروزييه إنها «محاصرة» حين تصبح التفاعلات بين مختلف فاعليها الاجتماعيين طقوساً جامدة وغير قابلة للتبدل. و «الحصار» بالتالي هو عجز الأشخاص أو المؤسسات عن تحقيق أنظمة تبادلات جديدة. ولتحقيق التغير، لم يعد من الملائم التأثير على «سبب»، وعلى فاعل أو على عنصر واحد في نظام معين، بل يجب التأثير على النظام العلائقي الذي يشكل السياق الشامل الأهم من العنصر المعني. في هذا المنظور ندرك أن كل مرض يمكن أن يُعالج دون أن يكون بحاجة إلى تدخل مباشر في هوية المريض. ويمكن إحداث تغير بالتدخل في نظام التفاعلات المتداخلة[2] فيه هوية المريض. ويعتبر هذا الأمر قابلاً للتطبيق على جميع العناصر الاجتماعية، في المؤسسة مثلاً. ويصبح «شفاء» دائرة معينة تغييراً في نظام علاقاتها مع بقية المؤسسة. والوالد المشوش (الدائرة المشوشة) هي «نتاج» المشكلات الزوجية للأهل (مشكلات تنظيمية للمؤسسة) التي تُستبعد عادة من المعالجة وتشكل موضوعاً للاستقصاءات.

إحداث تغييرات في الأفعال الملموسة القائمة ـ تعكس پالو ألتو المبدأ التقليدي

(1) J. Haley, Strategies of psychotherapy, New York, Grune & Stratton, 1963, p. 5.
(2) J. Haley, Pour une théorie des systèmes pathologiques, in Watzlawick et Weakland, Sur l'interaction, Seuil, 1981, p. 81.

الذي يشكل الوعي بموجبه الشرط المسبق الذي بدونه لا يمكن حصول تغير في السلوك. وعلى العكس إن الفعل هو المبدأ الأول. ويتعدى الفعل إعادة تحديد العالم بإعطاء المعنى لأفعال لم يكن لها. ويؤدي الفعل إلى تجربة تصور جديد للواقع. وفي نظرة علمية، يقول واتزلويك إنه يجب الشك بالبديهة التي بموجبها يكون التفكير المسبق بعلاقة السببية بين عدة عناصر من الماضي وأخرى من الحاضر شرطاً لازماً لكل تغير.

وبما أن السلوك المرضي ليس هو نتاج اختلال داخلي للفرد، فإنه من الملائم اختبار ما يقوم به الشخص لحل مشكلته[1]. ويجب البحث في كيفية التصرف الفوري للشخص وبأية نتيجة. والمشكلة الحقيقية توجد في ما بذله النظام حتى الآن لتسوية المشكلة المفترضة. ويجب أن يطال التدخل هذا الحل الكاذب المولد للمشكلات وأن يتكرر باستمرار. تلك هي الفكرة الكبيرة أن «الحل يؤلف المشكلة». ومن الملائم تقديم أوامر تتقاطع مع ما هو «أكثر من الشيء ذاته دائماً».

إن أطر العناية في هذا المستشفى سلبية وبدون مبادرة. ويجمع جميع أعضاء الفريق الإداري على القول: «إنه يجب إعطاؤهم الأوامر باستمرار، والقول لهم، ما العمل وكيف العمل». هكذا فإن الممرضين والمدير ورئيس الخدمات الاقتصادية... يمضون وقتهم في إعطاء الأوامر. وتكون المشكلة بالتالي إعطاءهم التعليمات الجيدة، ويحرر الفريق الإداري على الدوام، مذكرات الخدمة وأنظمتها. وحين لا يكفي ذلك وتبقى المشكلة على حالها، يتدخل كل واحد بصورة سلطوية في الغالب حيال ملاك الممرضين. بيد أن هذا النمط من التدخل (إعطاء الأوامر باستمرار) يؤلف مشكلة هذا المستشفى (المشكلة ليست «أن الأطر عاجزة» أو «أنها لا تريد القيام بشيء»). إن واقع إعطاء الأوامر باستمرار، وبصورة متناقضة في الغالب، هو في صلب صراع سلطوي يجري على مستوى الفريق الإداري. والشكل الوحيد للخروج منه هو «وضع الترقب انتظاراً للأمر المضاد».

أمر «التظاهر بالشيء» ـ بدل أن يشجع المعالج المريض على إظهار العرض،

(1) P. Watzlawick, Le langage du changement, 1978, Seuil, 1980, p. 164.

يمكن، كما رأينا، أن يوحي له بـ «التظاهر بامتلاك العرض. وقد وصف باتيزون، هذه العملية في لعب الحيوانات: حيث تعتبر ضربة الأسنان المازحة دلالة عضة، لكنها لا تعني عضة حقيقية[1]. هذا يعني أن تضع العرض بمثله، لكنه لا يصل إلى حقيقة المعنى العرضي. مثال ذلك، بينما يمكن أن تكون أوجاع الرأس، لدى الولد، دلالة على الصعوبات المهنية لوالده، فإن آلام الرأس «المزعومة» هي الدلالة على أوجاع الرأس «الحقيقية»، وليس على المشكلات المهنية للأب. ويشكل أمر التظاهر بالعرض، حسب مادان Madanes، تطبيقاً أوسع من الوصف البسيط للعرض. ويسمح بإعطاء رد أكثر مرونة. وردة الفعل على الوصفة المفارقة للعرض هي كل شيء أو لا شيء. أما ردة فعل طلب تصنع العرض، فهي أقل ظهوراً للنظر، لكنها أكثر تلقائية وابتكاراً. وهذا مثال يوضح هذا المفهوم.

أجرى أب وأم استشارة حول أوجاع الرأس المتكررة لابنهما البالغ من العمر سبع سنوات. ووصفا مشكلة الصبي بتعابير مبهمة جداً» بحيث كان من المستحيل معرفة مدى تكرار هذه الأوجاع. وما إذا كانت تفاقمت حديثاً أم لا. وكما ذكرت مشكلات سلوكية في المدرسة، لكن دون معرفتها بوضوح، وفوق ذلك، يبدو أنها حلت بتغيير المدرسة. وقالت الأم إن الصبي كان غيوراً من أخته البالغة الخامسة من العمر، والمتفوقة عليه، ووافق الأب على ذلك، وتحدث الأب والأم عن ابنهما عدة مرات، بشكل غامض جداً بحيث صعب على المعالج تحديد إرجاع الكلام للأب أم للإبن.

وأدت الصيغة المبهمة والمشوشة لتقديم المشكلات، واختيار الكلمات التي يمكن نسبتها إلى شخص راشد أكثر مما إلى ولد، وصعوبة إدراك ما إذا كان الأهل يتحدثون عن الأب أم عن الابن، كل ذلك أدى إلى الفرضية التالية: كان على الأب أن يواجه مشكلات مؤلمة جداً في سبيل الزوجين، واتبع الأهل نمطاً للتحدث عن صعوبات الإبن، يعتبر طريقة مناقشة لهموم الأب (سيثبت فيما بعد أن الأب لديه صعوبات جدية. ويحاول الشفاء من تعاطيه الكحول، ويجازف بفقدان عمله ولم يتوصل إلى نسيان الرواية التي كتبها). ويكون هدف العلاج حينذاك تحرير الابن من دوره

(1) G.Bateson (1954), Vers une écologie de l'esprit, Seuil 1977, p. 211.

المجازي لكي يستطيع الأهل الحديث عن هموم الأب. وبصورة اعتيادية، يصاب الابن بأوجاع الشقيقة عند عودته من المدرسة، حين يعود أبوه من عمله في حالة يرثى لها».

ويضع المعالجون النفسانيون حينذاك الفرضية التالية: يوفر الابن مجازاً للأهل، يستخدمونه لتجنب التحدث مباشرة عن مشكلاتهم المؤلمة جداً. هكذا يصون الإبن والده بعرض يُحدث اضطراب الإبن. ويقرر المعالجون النفسانيون حينذاك مساعدة الأب على التماسك لمساعدة ابنه بدلاً من الشعور بأنه مثقل بمشكلاته الخاصة.

بالتالي يطلبون من العائلة كل مساء لعب مشهد يرغم الأب فيه على التظاهر بالعودة مع وجع مرعب من ألم الرأس. وعلى الابن محاولة نقل البهجة إليه بعرض بعض الألعاب عليه. كما عليه محاولة معرفة ما إذا كان الأب مصاباً بالشقيقة «حقاً»، بسؤاله عما يشعر به وكيف أمضى يومه في المكتب. وعلى الأب أن يتحدث عن مشكلات وهمية وتجنب التعبير عن متاعبه الحقيقية. وخلال المناقشة بين الأب والإبن، على الأم والإبن التصرف كأنهما يحضّران العشاء (لأنه في حال التحضير للعشاء، على كل فرد القيام بدور معين).

وتنفذ العائلة الأمر، وتوضح في الاسبوع اللاحق أن تحسناً طرأ على حالة الابن، وتتابع القيام بالمشهد ذاته خلال ثلاثة أسابيع أخرى وتزول أوجاع الشقيقية.

فما الذي جرى؟ بالطلب من الأب التظاهر كل يوم بالإصابة بالشقيقة وتبريرها بالحديث عن مشكلات وهمية في عمله، حقق المصالحون وضعاً لا يعرف فيه الإبن أبداً إذا كان والده مكدراً حقاً، وبالتالي لا يستطيع مساعدته، بشكل عادي. بالمقابل، عرضت عليه طريقة جديدة كلياً لحماية والده، وعليه أن يمثل ويتحدث معه. هكذا، لم يعد لدى الصبي حاجة إلى آلام الرأس للقيام بدور الحماية. فتصبح أوجاع الأب المزعومة استعارة لمشكلته الحقيقية، ويمكن مناقشتها من قبل العائلة بطريقة اللعب. والإبن وحده لا يستخدم حالة الاستعارة[1].

---

(1) D'après C. Madanes, op. cit. p. 89.

III - خلاصة

إن علم النفس الجديد يهتم بالأفراد بصفتهم ينتمون إلى نظام من التفاعلات يتدخل فيه أفراد آخرون. ويتخلى علم النفس الجديد عن أرضية التفاعلات النفسانية للدوافع للتركيز على التصورات التي يكونها الأشخاص عن علاقاتهم مع الآخرين، وعن أنظمة العلاقات الجارية في التفاعلات.

الخلاصة العامة

قدمتُ، في هذا الكتاب، أطروحة تناولت المئة الأخيرة من سنوات تطور علم النفس. ولا تستعيد هذه الأطروحة أشكال التبويب التقليدية لعلم النفس التي تحجب علاقات الترابط في تطوره.

وقد نظمت هذه الأطروحة حول ثلاث قضايا كبرى، فالقضية الأولى هي أن التطور الأساسي لعلم النفس قد جرى في الثلاثينات من القرن الحالي حول فكرة «العالم الخاص» التي شاركت فيها الأكثرية الساحقة من علماء النفس.

والقضية الثانية هي أن هذا المفهوم لـ «العالم الخاص» قد أوصل إلى إشكاليتين: واحدة تتعلق ببناء العوالم الخاصة، والثانية تتعلق بطبيعة هذه العوالم. وقدمت المدرسة التشكيلية المعاصرة وعلم النفس الجديد إجاباتهما الخاصة حيال هذه القضايا.

والقضية الثالثة هي أن صيغة القياس الفرويدية (1880) في تحديد إنسان «الرغبات» قد جرى تخطيها بشكل واسع على الصعيد العلمي والعملي بصيغة القياس المنظومي والتفاعلي (1980) في علم النفس الجديد، في تحديد «إنسان الاتصال».

وستشهد السنوات القريبة معركة حامية للسيطرة العلمية على الأرضية النفسانية بين هذين المفهومين غير القابلين للقياس والتصالح في علم النفس.

BIBLIOGRAPHIE بيبليوغرافيا

(Les ouvrages cités dans le cours du texte ne sont pas repris.)

Adler A. (1935), *Connaissance de l'Homme*, Payot, 1976.
Allport G. W. (1937), *Personality : a psychological interpretation*, New York, Holt, 1937.
Bateson G., Towards a theory of schizophrenia, *Behavioral Sciences*, vol. 1, n° 4, 1956, p. 251-264.
Bellak L. (1945), *Manuel du TAT*, Ed. Psychotechniques, 1960.
Benoit J.-C. (textes présentés par), *Changements systémiques en thérapie familiale*, Ed. ESF, 1987.
Binswanger L. (1947), *Introduction à l'analyse existentielle*, Ed. de Minuit, 1971.
Binswanger L. (1955), *Discours, parcours et Freud*, Gallimard, 1970.
Bouveresse R., *Les critiques de la psychanalyse*, PUF, 1992.
Chemouni J., *Histoire du mouvement psychanalytique*, PUF, 1992.
Dilthey W. (1883), *Introduction à l'étude des sciences humaines*, PUF, 1942.
Foulquié P., *La psychologie contemporaine*, PUF, 1951.
Guillaume M. (sous la dir. de), *L'état des sciences sociales en France*, Ed. La Découverte, 1986.
Guillaume P., *L'imitation chez l'enfant*, Alcan, 1925.
Hesnard A., *L'œuvre de Freud*, PUF, 1960.
Husserl E. (1913), *Idées directrices pour une phénoménologie*, trad. franç., Gallimard, 1950.
Marc E. et Picard D., *L'école de Palo Alto*, Ed. Retz, 1984.
May R. (1950), *Existential psychology*, New York, Basic Books, 1958.
Montmollin G. de, La notion d'interaction et les théories de la personnalité, in *Les modèles de la personnalité en psychologie*, PUF, 1965, p. 5-37.
Moreno J.-L. (1950), *Psychothérapie de groupe et psychodrame : introduction théorique et clinique à la socio-analyse*, PUF, 1978.
Mueller F. L., *La psychologie contemporaine*, Payot, 1963.
Piaget J. (1923), *Le langage et la pensée chez l'enfant*, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1948.
Piaget J., Inhelder B., *La genèse des structures logiques élémentaires*, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1959.
Sartre J.-P., *L'être et le néant*, Gallimard, 1945.
Satir V., *Thérapie du couple et de la famille*, Ed. Epi, 1977.
Watzlawick P., *Changement et paradoxe en psychothérapie*, Seuil, 1975.
Watzlawick P. (sous la dir. de), *L'invention de la réalité. Contribution au constructivisme*, Seuil, 1988.
Zazzo R., La découverte du nouveau-né, *Bulletin de psychologie*, n° 381, t. XL, juin-août 1987, p. 615-617.

فهرس

القسم الثاني

المساهمات العلمية المؤدية إلى علم النفس الجديد

القسم الثالث

علم النفس الجديد أو الإنسان المتصل

منشورات عويدات 1007/ 1997م

ALEX MUCCHIELLI

LA NOUVELLE PSYCHOLOGIE

Traduction arabe
de
Hussein HAIDAR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban